قتل المنصور لأبى مسلم

حدثنا إبراهيم بن محمد بن عمر بن عرفة الأزدى قال، أخبرنا أبو العباس المنصورى قال: لما قتل المنصور أبا مسلم[1] قال: رحمك الله أبا مسلم، فإنك بايعتنا وبايعناك، وعاهدتنا وعاهدناك، ووفيت لنا ووفينا لك، فإنك بايعتنا على أنه من خرج علينا قتلناه، وأنك خرجت علينا فقتلناك، وحكمنا لك حكمك لنا على نفسك.

قال: ولما أراد المنصور قتله دس رجالا من القواد منهم شبيب بن واج وتقدم إليهم فقال: إذا سمعتهم تصفيقى فاخرجوا إليه فاضربوه. فلما حضر حاوره طويلا حتى قال له فى بعض قوله: وقتلت وجوه شيعتنا فلانا وفلانا، وقتلت سليمان بن كثير، وهو من رؤساء أنصار دولتنا، فقتلت لاهزا. قال: إنهم عصونى فقتلتهم. وقد كان قبل ذلك قال المنصور له: ما فعل سيفان بلغنى أنك أخذتهما من عبد الله بن على[2]؟ قال: هذا أحدهما يا أمير المؤمنين، يعنى السيف الذى هو متقلد به. قال: أرنيه، فدفعه إليه فوضعه المنصور تحت

---

(١) هو أبو مسلم عبد الرحمن بن مسلم الخراساني، صاحب الدعوة العباسية فى خراسان ومن ثم واليها، كان قائدا عسكريا وسياسيا داهية، كان من أحفاد ملوك الأكاسرة فى فارس، ولد عام ١٠٠ هـ، كان مولى لبني العباس فخدم إبراهيم إمام العباسيين وأخو السفاح والمنصور، فوثق به وأرسله إلي خراسان داعيا فيها ليؤلف قلوب الموالى الخراسانيين، فاستمال أهلها ووثب على ابن الكرمانى والي نيسابور فقتله واستولى عليها وسير جيشا كبيرا من المشرق لمقاتلة مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية فهزمه عام ١٣٢هـ، فزالت بذلك الدولة الأموية كان يشبه الحجاج في كثرة القتل فكان يأخذ بالظنة ولم يكن له صاحب أو مؤتمن. وكانت له هيبة كبيرة فكان لا يضحك أبدا، تحدثت الروايات أنه قتل مليون عربى لا لشئ سوى انتقاما لأصله، قتل عن بضع وثلاثين عاما.

(٢) هو عبد الله بن على بن عبد الله بن العباس، عم الخليفتين السفاح والمنصور وأحد القادة البارزين فى صراع العباسيين مع آخر الخلفاء الأمويين مروان بن محمد، عندما تولى أبو العباس أول الخلفاء العباسيين طلب من بنى العباس رجلا يحارب مروان بن محمد ويتخلص من الأمويين وقال: (إن من حاربه وغلبه لحقيق أن يكون ولى العهد) فلم يتقدم إلا عبد الله بن على، فقاد الجيش العباسي ضد مروان بن محمد واستطاع هزيمته فى موقعة الزاب الشهيرة عام ١٣٢هـ/٧٥٠م ثم تتبع فلول الأمويين، وفى سنة ١٣٣هـ كتب أبو العباس إلى عبد الله يعلمه أن قسطنطين طاغية الروم حاصر ملطية، فزحف عبد الله يقطع الدروب ويبث جيوشه فى نواحى الثغور ولم يزل كذلك حتى وصل إليه خبر وفاة الخليفة السفاح وما كان من عهده لأبى جعفر ومبايعة العباسيين له، فأعلن عبد الله الثورة معتمدا على جيشه الكبير. أسند أبو جعفر مهمة قتاله إلى أبى مسلم فتوجه إليه فى جيش من الخراسانيين فتحصن عبد الله بحران وسد الطريق عليه، ولكن استطاع أبو مسلم بحيلته أن يخرجه من مكمنه فتقاتل الفريقان ستة أشهر حتى هزم عبد الله والتجأ إلى أخيه سليمان والى البصرة، فكتب أبو جعفر إلى سليمان يطلب منه إحضار عبد الله وأعطاه الأمان ثم أمر بحبسه واستمر حبسه سبع سنوات، وقيل أن البيت الذى حبس فيه وقع عليه فقتله عام ١٤٧ هـ.

مصلاه وسكنت نفسه. فلما قال ما قال، قال المنصور: يا للعجب أتقتلهم حين عصوك وتعصينى أنت فلا أقتلك؟!

ثم صفق فخرج القوم وبدورهم إليه شبيب فضربه فلم يزد على أن قطع حمائل سيفه. فقال له المنصور: اضربه قطع الله يدك، فقال أبو مسلم: يا أمير المؤمنين استبقن لعدوك قال: وأى عدو أعدى منك؟ فضربوه بأسيافهم حتى قطعوه إربا إربا. فقال المنصور: الحمد لله الذى أرانى يومك يا عدو الله. واستؤذن لعيسى بن موسى. فلما دخل ورأى أبا مسلم على تلك الحال، وقد كان يكلّم المنصور فى أمره لعناية كانت منه به. استرجع، فقال له المنصور: احمد الله فإنك إنما هجمت على نعمة ولم تهجم على مصيبة.

من كتاب (الجليس الصالح والأنيس الناصح) للمعافى بن زكريا.

□□□

بناء مدينة القيروان

لما أرد عقبة بن نافع[1] بناء مدينة القيروان وأجابه المسلمون إلى ذلك، أتى بهم إلى موضعها، وهو إذ ذاك شعارى لا تسلك وقال: شأنكم. فقالوا له: إنك أمرتنا بالبناء فى شعارى وغياض[2] لا تسلك ولا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك من خشاش الأرض. وكان عقبة مستجاب الدعوة، فدعا الله عز وجل. وجعل أصحابه يؤمنون على دعائه.

وكان فى عسكره ثمانية عشر رجلا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجمعهم ونادى: أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ارحلوا عنا إنا نازلون. ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه.

فنظر الناس فى ذلك اليوم إلى السباع تحمل أشبالها، والذئاب تحمل أجراءها، والحيات تحمل أولادها. فأسلم كثير من البربر. ونادى عقبة فى الناس كفّوا عنهم حتى يرتحلوا عنا.

فلما خرج ما فيها من ذلك، جمع عقبة وجوه أصحابه ودار بهم حول المكان وأقبل يدعو الله ويقول: اللهم املأها علما وفقها، واعمرها بالمطيعين والعابدين، وامنعها من جبابرة الأرض. ثم نزل عقبة الوادى. وأمر الناس أن يختطوا ويقلعوا الشجر. قال: فأقام أهل إفريقية بعد ذلك أربعين سنة لا يرون بها حية ولا عقربا.

---

(١) هو عقبة بن نافع بن عبد القيس بن عامر بن أمية الفهرى القرشى، من كبار قادرة الفتح الإسلامى، يعتبره البعض صحابيا لأنه ولد قبل هجرة النبى صلى الله عليه وسلم بعام واحد، ويعده البعض الآخر من كبار التابعين، كان هو وأبوه فى جيش فتح مصر عام ٢١ هـ ثم ولاه عمرو بن العاص برقة بعد فتحها، وعندما أصبح معاوية بن حديج واليا على مصر عامة ٤١هـ أرسل عقبة إلى الشمال الإفريقى لمواصلة حركة الفتح التى توقفت منذ اندلاع الفتنة بين على ومعاوية. استطاع بالفعل عقبة وجنوده تطهير المغرب الأدنى (ليبيا) من الحاميات الرومية ووصل إلى مشارف المغرب الأوسط (تونس) فأراد بناء قاعدة للجيش الإسلامى لمواصلة الزحف، فبنى القيروان بتونس عام ٥٥هـ، وعندما تولى الإمارة بالمغرب للمرة الثانية عام ٦٢هـ، خرج من القيروان بجيش كبير اكتسح به كامل الشمال الإفريقى حتى وصل إلى المحيط الأطلنطى وقال كلمته الشهيرة بعد أن توغل بفرسه فى المحيط(والله لو علمت أن وراء هذا الخضم أرضا لخضته غازيا فى سبيل الله)، قتل عقبة وهو عائدا من فتح المغرب على يد القائد البربرى كسيلة وقتل معه ابا المهاجر دينارعام ٦٣هـ.

(٢) الشعارى والغياض: هى الأرض الغائرة التى يتجمع فيها الماء فينبت فيها الشجر فتكون صعبة المسلك وملجأ لهوام الأرض.

قال: واختط دار الإمار والمسجد الأعظم، ولم يحدث فيه بناء، وكان يصلى فيه وهو كذلك. فاختلف الناس فى القبلة وقالوا: إن أهل الغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا المسجد، فاجهد نفسك فى أمرها. فأقاموا مدة ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من النجوم ومشارق الشمس.

فلما رأى عقبة الاختلاف اهتم لذلك وسأل الله تعالى، فأتاه آت فى منامه فقال له: يا وليى رب العالمين، إذا أصبحت فخذ اللواء واجعله على عنقك، فإنك تسمع بين يديك تكبيرا لا يسمعه غيرك. الموضع الذى ينقطع عنك التكبير فهو قبلتك ومحرابه مسجدك. وقد رضى الله عز وجل أمر هذه المدينة وهذا المسجد. وسوف يعز بها دينه ويذل بها من كفره إلى آخر الدهر.

فاستيقظ من منامه وقد جزع جزعا شديداً. فتوضأ وأخذ فى الصلاة فى المسجد وهو لم يبن بعد، ومعه أشراف الناس. فلما طلع الفجر وركع عقبة سمع التكبير بين يديه. فقال لمن حوله: ألا تسمعون؟ قالوا: لا نسمع شيئاً، فقال: إن الأمر من عند الله عز وجل، وأخذ اللواء ووضعه على عاتقه، وأقبل يتتبع التكبير بين يديه حتى انتهى إلى محراب المسجد، فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: هذا محرابكم.

ثم أخذ الناس فى بنيان الدور والمساكن والمساجد فعمرت. وكان دورها ثلاثة آلاف باع وستمائة باع. فكملت فى سنة خمس وخمسين. وسكنها الناس وعظم قدرها.

من كتاب (نهاية الأرب فى فنون الأدب) للنويرى.

❑❑❑

الخيزران.. وامرأة مروان

وكانت الخيزران أم الهادى والرشـيد فى دارها المعروفة اليوم بأشناس، وعندها أمهات أولاد الخلفاء وغيرهن من بنات بنى هاشم، وهى على بساط أرمنى وهن على نمارق ارمنية، وزينـب بنت سـليمان بن على أعلاهن مرتبة، فبينما هـن كذلك إذ دخل خادم لها فقال: بالباب أمرأة ذات حسن وجمال فى أطمار رثة تأبى أن تخبر باسمها وشأنها غيركن، وتروم الدخول عليكن، وقد كان المهدى[1] تقدم إلى الخيزران بأن تلزم زينب بنت سليمان بن على، وقال لها: اقتبسى من آدابها، وخذى من أخلاقها، فإنها عجوز لنا قد ادركت أوائلنا.

فقالـت الخيزران للخادم: ائذن لها، فدخلت أمـرأة ذات بهاء وجمال فى أطمار رثة، فتكلمت فأوضحت عن بيان على لسان فقالوا لها: من انت؟ قالت: أنا مزنة امرأة مروان بن محمد[2]، وقد أصارنى الدهر إلى ما ترين، ووالله ما الأطمار الرثة التى على الا عارية، وانكم لما غلبتمونا على هذا الأمر وصار لكم دوننا لم نأمن مخالطة العامة على ما نحن فيه من الضرر على بادرة إلينا تزيل موضع الشرف، فقصدناكم لنكون فى حجابكم على أية حالة كانت، حتى تأتى دعوة من له الدعوة، فاغرورقت عينا الخيزران ونظرت إليها زينب بنت سليمان بـن علـى، فقالت لها: لاخفف الله عنك يا مزنة، اتذكرين وقد دخلت عليك بحران وأنت على هذا البسـاط بعينه، ونساء قرابتكم على هذه النمارق، فكلمتك فى جثة إبراهيم الإمام، فأنتهرتنى وأمرت بإخراجى، وقلت: ما للنساء والدخول على الرجال فى آرائهم. فوالله لقد كان مروان أرعى للحق منك، لقد دخلت إليه فحلف أنه ما قتله، وهو كاذب، وخيرنى بين ان يدفنه او يدفع الى جثته فاخترت جثته وعرض على مالا فلم اقبله.

---

(١) هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله المنصور المهدى بالله (١٥٨ – ١٦٩هـ/٧٧٥ – ٧٨٥م)، ثالث خلفاء بنى العباس، تولى بعد وفاة أبيه المنصور، شغف بالخيزران فرزق منها بالهادى والرشيد، كان حسن السيرة محببا للرعية حسن الخلق، انتعشت بغداد فى عهده انتعاشا ملحوظا حتى قيل إنها كانت أكبر مدن العالم سكانا فى ذلك الوقت، قال عنه الذهبى إنه أول من عمل البريد من الحجاز إلى العراق، توفى عام ١٦٩هـ فخلفه ابنه الهادى.

(٢) هو مروان بن محمد بن مروان بن الحكم الأموى (١٢٦ – ١٣٢هـ/٧٤٤ – ٧٥٠م)، الرابع عشر والأخير من خلفاء بنى أمية فى دمشق، كان واليا على أرمينية وأذربيجان وقد أظهر كفاءة كبيرة كوالي، تولى الخلافة بعد ابن عمه إبراهيم بن الوليد الذى تخلى عن الخلافة له، بالرغم من وقوفه بقوة أمام الاضطرابات والثورات التى عصفت بالدولة إلا أنه لم يستطع الوقوف أمام الدعوة العباسية التى استفحل أمرها فى خراسان حتى التقى بالجيش العباسى فى معركة الزاب الحاسمة عام ١٣٢هـ والتى أدت إلى سقوط دولة بنى أمية، واستمر مختفيا بعدها حتى عثر عليه فى أبى صير بمصر مقتولا فى نفس العام.

فقالت مزنة: والله ما نظن هذه الحالة أدتنى إلى ما ترينه إلا بالفعال التى كانت منى، وكأنك استحسنته فحرضت الخيزران على فعل مثله، إنما كان يجب ان تحضيها على فعل الخير وترك المقابلة بالشر، لتحرز بذلك نعيمها، وتصون بها دينها، ثم قالت لزينب: يا بنت عم، كيف رأيت صنيع الله بنا فى العقوق فأحببت التأسى بنا، ثم ولت باكية وكرهت الخيزران أن تخالف زينب فيها فغمزت الخيزران بعض جواريها، فعدلت بها إلى بعض المقاصير، وأمرت بتغيير حالها والاحسان إليها، فلما دخل المهدى عليها – وقد انصرفت زينب وكان من شأنه الاجتماع مع خواص حرمه فى كل عشية – قصت عليه الخيزران قصتها، وما أمرت به من تغيير حالها، فدعا بالجارية التى ردتها، فقال لها: لما رددتها إلى المقصورة ما الذى سمعتها تقول، قالت: لحقتها فى الممر الفلانى وهى تبكى فى خروجها مؤتسية وهى تقرأ « وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان، فكفرت بأنعم الله، فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون" ثم قال للخيزران: والله والله لو لم تفعلى بها ما فعلت ما كلمتك أبدا، وبكى بكاء كثيرا، وقال: اللهم إنى أعوذ بك من زوال النعمة، وانكر فعل زينب، وقال: لولا أنها اكبر نسائنا لحلفت ألا اكلمها، ثم بعث إليها بعض الجوارى إلى مقصورتها التى أخليت لها، وقال للجارية: اقرئى عليها السلام منى وقولى لها يا بنت عمر إن أخواتك قد اجتمعن عندى، ولولا إنى أغمك لجئناك، فلما سمعت الرسالة علمت مراد المهدى، وقد حضرت زينب بنت سليمان، فجاءت مزنة تسحب اذيالها، فأمرها بالجلوس، ورحب بها واستداناها ورفع منزلتها فوق منزلة زينب بنت سليمان بن على، ثم تفاوضوا أخبار أسلافهم، وأيام الناس، والدول وتنقلها، فما تركت لأحد فى المجلس كلاما، فقال لها المهدى: يا بنت عم، والله لولا إنى لا أحب أن أجعل لقوم أنت منهم من أمرنا شيئا لتزوجتك، ولكن لا شىء أصون لك من حجابى، وكونك مع أخوتك فى قصرى: لك ما لهن، وعليك ما عليهن، إلى أن يأتيك أمر من له الأمر فيما حكم به على الخلق، ثم اقطعها مثل ما لهن من الإقطاع وأخدمها وأجازها، فأقامت فى قصره إلى أن قبض الهادى وأيام الهدى وصدرا من أيام الرشيد، وماتت فى خلافته، لا يفرق بينها وبين نساء بنى هاشم وخواص حرائرهم وجواريهم، فلما قبضت جزع الرشيد والحرم جزعا شديدا.

من كتاب (مروج الذهب) للمسعودى.

وفاة الرشيد

قال جبرائيل بن بختيشوع: كنت مع الرشيد بالرقة. وكنت أول من يدخل عليه فى كل غداة. أتعرف حاله فى ليلته، ثم يحدثنى وينبسط إلى. ويسألنى عن أخبار العامة، فدخلت عليه يوما فسلمت عليه، فلم يكد يرفع طرفه، ورأيته عابسا مفكرا مهموما فوقفت مليا من النهار. وهو على تلك الحال. فلما طال ذلك أقدمت فسألته عن حاله، وما سببه؟ فقال: إن فكرى وهمى لرؤيا رأيتها فى ليلتى هذه قد أفزعتنى، وملأت صدرى. فقلت: فرجت عنى، يا أمير المؤمنين؛ ثم قبلت يده ورجله. وقلت: الرؤيا إما تكون لخاطر أو بخارات ردية، وتهاويل السوداء، وهى أضغاث أحلام.

قال: فإنى أقصها عليك، رأيت كأنى جالس على سريرى هذا إذ بدت من تحتى ذراع أعرفها وكف أعرفها لا أفهم اسم صاحبها وفى الكف تربة حمراء. فقال لى قائل أسمعه ولا أرى شخصه: هذه التربة التى تدفن فيها؛ فقلت: وأين هذه التربة؟ قال: طوس، وغابت اليد، وانقطع الكلام.

فقلت: أحسبك لما أخذت مضجعك فكرت فى خراسان، وما ورد عليك منها وانتقاض بعضها فذلك الفكر أوجب هذه الرؤيا.

فقال: كان ذلك؛ فأمرته باللهو والانبساط، ففعل، ونسينا الرؤيا وطالت الأيام، ثم سار إلى خراسان لحرب رافع، فلما صار ببعض الطريق ابتدأت به العلة، فلم تزل تزيد، حتى دخلنا طوس، فبينما هو يمرض فى بستان فى ذلك القصر الذى هو فيه، إذ ذكر تلك الرؤيا فوثب متحاملا يقوم ويسقط. فاجتمعنا إليه نسأله، فقال: أتذكر رؤياى بالرقة فى طوس؟ ثم رفع رأسه إلى مسرور فقال: جئنى من تربة هذا البستان! فأتاه بها فى كفه حاسرا عن ذراعه، فلما نظر إليه قال: هذه والله الذراع التى رأيتها فى منامى، وهذه الكف بعينها وهذه التربة الحمراء ما خرمت شيئا؛ وأقبل على البكاء والنحيب، ثم مات بعد ثلاثة أيام.

قال أبوجعفر: لما سار الرشيد عن بغداد إلى خراسان بلغ جرجان فى صفر، وقد اشتدت علته، فسير ابنه المأمون إلى مرو، وسير معه من القواد عبد الله بن مالك، ويحيى بن معاذ، وأسد بن يزيد، والعباس بن جعفر بن محمد بن الأشعث، والسندى الحرشى، ونعيم بن حازم، وسار الرشيد إلى طوس واشتد به الوجع، حتى ضعف عن الحركة، فلما أثقل

أرجف به الناس، فبلغه ذلك، فأمر بمركوب ليركبه ليراه الناس، فأتى بفرس فلم يقدر على النهوض، فأتى ببرذون فلم يطق النهوض، فأتى بحمار فلم ينهض، فقال: ردونى! صدق والله الناس.

ووصل إليه، وهو بطوس، بشير بن الليث أخو رافع أسير، فقال الرشيد: والله لو لم يبق من أجلى إلا أن أحرك شفتى بكلمة لقلت اقتلوه. ثم دعا بقصاب، فأمر به، ففصل أعضاءه، فلما فرغ منه أغمى عليه، وتفرق الناس عنه.

فلما أيس من نفسه أمر بقبره، فحفر فى موضع من الدار التى كان فيها، وأنزل إليه قوما فقرأوا فيه القرآن حتى ختموا وهو فى محفة على شفير القبر، يقول: ابن آدم تصير إلى هذا؛ وكان يقول فى تلك الحال: واسوأتاه من رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وقال الهيثم بن عدى: لما حضرت الرشيد الوفاة غشى عليه، ففتح عينيه منها فرأى الفضل بن الربيع على رأسه، فقال: يا فضل:

أحين دنا ما كنت أرجو دنوه رمتنى عيون الناس من كل جانب
فأصبحت مرحوما وكنت محسودا فصبرا لى مكروه أمن العواقب
سأبكى على الوصل الذى كان بيننا وأندب أيام السرور الذواهب

قال سهل بن صاعد: كنت عند الرشيد وهو يجود بنفسه، فدعا بملحفة غليظة، فاجتبى بها وجعل يقاسى ما يقاسي، فنهضت، فقال: اقعد، فقعدت طويلا لا يكلمنى ولا أكلمه، فنهضت، فقال: أين سهل؟ فقلت: ما يتسع قلبى يا أمير المؤمنين، يعانى من المرض ما يعاني، فلو اضطجعت، يا أمير المؤمنين، فضحك ضحك صحيح، ثم قال: يا سهل! اذكر فى هذه الحال قول الشاعر:

وإنى من قوم كرام يزيدهم شماسا وصبرا شدة الحدثان

ثم مات، وصلى عليه ابنه صالح، وحضر وفاته الفضل بن الربيع، وإسماعيل بن صبيح، ومسرور وحسين ورشيد.

وكانت خلافته ثلاثا وعشرين سنة وشهرين وثمانية عشر يوما وقيل ملك ثلاثا وعشرين سنة وشهرا وستة عشر يوما وكان عمره سبعا وأربعين سنة وخمسة أشهر وخمسة أيام، وكان جميلا وسيما أبيض، جعدا قد وخطه الشيب، قال: وكان فى بيت المال لما توفى تسعمائة ألف ألف ونيف.

من كتاب (الكامل فى التاريخ) لابن الأثير.

من خلق الأعراب

وحدث العتبى عن بعض أشياخه قال: كنت عند المهاجر بن عبد الله والى اليمامة[1]. فأتى بأعرابى كان معروفا بالسرقة فقال له: أخبرنى عن بعض عجائبك. قال: عجائبى كثيرة. ومن أعجبها، أنه كان لى بعير لا يسبق، وكانت لى خيل لا تلحق، فكنت أخرج فلا أرجع خائبا. فخرجت يوما فاحترشت ضبا، فعلقته على قتبى[2]، ثم مررت بخباء ليس فيه إلا عجوز ليس معها غيرها. فقلت: يجب أن يكون لهذه رائحة من غنم وإبل.

فلما أمسيت إذا بإبل وإذا شيخ عظيم البطن شثن (غليظ) الكفين ومعه عبد أسود وغد (خادم). فلما رآنى رحب بى، ثم قام إلى ناقة فاحتلبها، وناولنى العلبة، فشربت ما يشرب الرجل، فتناول الباقى فضرب بها جبهته، ثم احتلب تسع أينق، فشرب ألبانهن، ثم نحر حوارا[3] فطبخه، فأكلت شيئا، وأكل الجميع حتى ألقى عظامه بيضاً. وجثا على كومة من البطحاء وتوسدها، ثم غط غطيط (نوم عميق) البكر. فقلت: هذه والله الغنيمة، ثم قمت إلى فحل إبله فخطمته، ثم قرنته ببعيرى وصحت به، فاتبعنى الفحل واتبعته الإبل إربابا به فى قطار، فصارت خلفى كأنها حبل ممدود. فمضيت أبادر ثنية بينى وبينها مسيرة ليلة للمسرع، ولم أزل أضرب بعيرى مرة بيدى ومرة برجلى حتى طلع الفجر، فأبصرت الثنية وإذا عليها سواد، فلما دنوت منه، إذا الشيخ قاعد وقوسه فى حجره.

فقال: أضيفنا؟ قلت: نعم. قال: أتسخو نفسك عن هذه الإبل[4]؟ قلت: لا. فأخرج سهما كأنه لسان كلب، ثم قال: انظره بين أذنى الضب المعلق فى القتب، ثم رماه، فصدع عظمه عن دماغه، فقال لى: ما تقول؟ قلت: أنا على رأيى الأول قال: انظر هذا السهم الثانى فى فقرة ظهره الوسطى، ثم رمى به فكأنما قدره بيده ثم وضعه بإصبعه. ثم قال:

---

(١) اليمامة: اسم قديم لإقليم يقع وسط الجزيرة العربية ويمتد إلى الثلث الجنوبى الشرقى من الجزيرة وهى منطقة نجد الحالية، واشتهر إقليم اليمامة أثناء حروب الردة عامى ١١ ـ ١٢ للهجرة عندما قام بها مسيلمة الكذاب حتى قضى عليه الخليفة ابو بكر رضى الله عنه، وأصبحت اليمامة تابعة لولاة البحرين فى العصرين الأموى والعباسى حتى عام ٢٥٢هـ- ٨٦٦م حين استولى محمد بن يوسف الأخيضر وهو من نسل الحسن بن على رضى الله عنهما على الخضرمة وجعلها عاصمة لدولته، وقد استمرت الدولة الأخيضرية حتى منتصف القرن الخامس الهجرى حين قضى عليها القرامطة، فظلت المنطقة فى حالة من العزلة السياسية لعدة قرون.

(٢) شئ كالسرج يوضع فوق ظهر البعير.

(٣) هو ولد الناقة إلى أن يفطم.

(٤) هل لديك استعداد للتنازل عنها.

رأيك؟ فقلت: إنى أحب أن أستثبت. قال: انظر هذا السهم الثالث فى عكوة ذنبه. والرابع والله فى بطنك. ثم رماه فلم يخطئ العكوة. قلت: أنزل آمنا؟ قال: نعم. فدفعت إليه خطام فحله وقلت: هذه إبلك لم يذهب منها وبرة، وأنا متى يرمينى بسهم يقصد به قلبى. فلما تباعدت، قال: أقبل، فأقبلت والله فرقا من شره لا طمعا فى خيره. فقال: ما أحسبك تجشمت الليلة ما تجشمت إلا من حاجة. قلت نعم. قال فاقرن من هذه الإبل بعيرين وامض لطيتك. قال: قلت: أما والله لا أمضى حتى أخبرك عن نفسك، فلا والله ما رأيت أعرابيا قط أشد ضرسا، ولا أعدى رجلا، ولا أرمى يدا، ولا أكرم عفوا، ولا أسخى نفسا منك. فصرف وجهه عنى حياء، وقال: خذ الإبل برمتها مباركا لك فيها.

من كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسى.

□□□

عمر وعامل أبى موسى

قال الربيع بن زياد الحارثى: كنت عاملا لأبى موسى الأشعرى على البحرين، فكتب إليه عمر بن الخطاب رحمه الله يأمره بالقدوم عليه هو وعماله، وأن يستخلفوا جميعا. قال: فلما قدمنا أتيت يرفأ فقلت: يا يرفأ، مسترشد وابن سبيل، أى الهيئات أحب إلى أمير المؤمنين أن يرى فيها عماله فأومأ إلى بالخشونة، فاتخذت خفين مطارقين[1]، ولبست جبة صوف، ولثت عمامتى على رأسى.

ودخلنا على عمر رحمه الله فصفنا بين يديه فصعد فينا وصوب، فلم تأخذ عينه أحدا غيرى، فدعانى فقال: من أنت؟، قلت الربيع بن زياد الحارثى، فقال: وما تتولى من أعمالنا؟ قلت: البحرين قال: كم ترتزق؟ قلت: ألفا، قال: كثير، فما تصنع به؟ قلت: أتقوت منه شيئا، وأعود به على أقارب لى. فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين، قال: فلا بأس، ارجع إلى موضعك، فرجعت إلى موضعى من الصف، فصعد فينا وصوب، فلم تقع عينه إلا على، فدعانى، فقال: كم سنك؟، قلت: خمس وأربعون سنة، قال: الآن حين استحكمت.

ثم دعا بالطعام وأصحابى حديث عهدهم بلين العيش، وقد تجوعت له فأتى بخبز وأكسار بعير[2]، فيجعل أصحابى يعافون ذلك، وجعلت آكل فأجيد، فجعلت أنظر إليه ثم قلت: يا أميرالمؤمنين إن الناس يحتاجون إلى صلاحك فلو عمدت إلى ألين من هذا، فزجرنى، ثم قال: كيف قلت؟، فقلت: أقول: ياأمير المؤمنين أن تنظر إلى قوتك من الطحين، فيخبز لك قبل إرادتك إياه بيوم، ويطبخ لك اللحم كذلك، فتؤتى بالخبز لينا، واللحم غريضا[3]. فسكن من غربه[4] وقال: أههنا غرت[5] قلت: نعم، فقال: يا ربيع إنا لو نشاء ملأنا هذه الرحاب من صلائق[6]، وسبائك، وصناب[7]، ولكنى رأيت الله عز وجل نعى على قوم شهواتهم، فقال: ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا﴾[8]، ثم أمر أبا موسى بإقرارى، وأن يستبدل بأصحابى.

من كتاب (الكامل) للمبرد.

---

(١) أى مطبقين.

(٢) الكسر والجدل والوصل: العظم ينفصل بما عليه من اللحم.

(٣) أى طرياً.

(٤) أى من حده.

(٥) أى ذهبت.

(٦) أى اللحم المسلوق.

(٧) وهو الخردل بالزبيب.

(٨) سورة الأحقاف، آية: ٢٠

من إجابة الدعاء

ولعبد الملك فى تمنيه الخلافة وإجابة دعائه بذلك خبر غريب يدخل فى باب الأمانى، الصادقة، وقد رويته عن الحافظ أبى الربيع بن سالم بقراءتى عليه من طريق أبى على بن سكرة الصدفى بإسناده إلى الشعبى، قال:

لقد رأيت عجبا: كنا بفناء الكعبة وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان. فقال القوم بعد أن فرغوا من حديثهم: ليقم كل رجل منكم فليأخذ بالركن اليمانى ويسأل الله حاجته، فإنه يعطى من سعة، قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود ولد فى الهجرة.

فقام فأخذ بالركن اليمانى ثم قال: اللهم إنك عظيم ترجى لكل عظيم، أسألك بحرمة وجهك وحرمة عرشك وحرمة نبيك ألا تميتنى من الدنيا حتى تولينى الحجاز ويسلم على بالخلافة، وجاء حتى جلس.

فقالوا: قم يا مصعب بن الزبير، فقام حتى أخذ بالركن اليمانى ثم قال: اللهم إنك رب كل شيء وإليك يصير كل شيء، أسألك بقدرتك على كل شيء ألا تميتنى من الدنيا حتى تولينى العراق وتزوجنى سكينة بنت الحسين، وجاء حتى جلس.

وقالوا: قم يا عبد الملك بن مروان، فقام وأخذ بالركن اليمانى فقال: اللهم رب السماوات السبع ورب الأرضين ذات النبت بعد القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين حول بيتك، ألا تميتنى من الدنيا حتى تولينى مشرق الأرض ومغربها، ولا ينازعنى أحد إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس.

ثم قالوا: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليمانى ثم قال: اللهم إنك رحمن رحيم، أسألك برحمتك التى سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك ألا تميتنى من الدنيا حتى توجب لى الجنة. قال الشعبى: فما ذهبت عيناى من الدنيا حتى رأيت كل واحد منهم أعطى ما سأل، وبشر عبد الله بالجنة، ورويت له.

من كتاب (الحلة السيراء) لابن الأبار.

□□□

من عفو الإمام أحمد

سمعت إسحاق بن أحمد القطان البغدادى بتستر يقول: كان لنا جار ببغداد كنا نسميه طبيب القراء وكان يتفقد الصالحين ويتعاهدهم، فقال لى: دخلت يوما على أحمد بن حنبل فإذا هو مغموم مكروب، فقلت: ما لك يا أبا عبد الله؟ قال: خير، قلت: وما الخير؟ قال: امتحنت بتلك المحنة حتى ضربت[1]، ثم عالجونى وبرأت، إلا أنه بقى فى صلبى موضع يوجعنى هو أشد على من ذلك الضرب، قال: قلت اكشف لى عن صلبك، قال: فكشف لى فلم أر فيه إلا أثر الضرب فقط، فقلت ليس لى بذى معرفة ولكن سأستخبر عن هذا.

قال: فخرجت من عنده حتى أتيت صاحب الحبس وكان بينى وبينه فضل معرفة، فقلت له: أدخل الحبس فى حاجة، قال: ادخل، فدخلت وجمعت فتيانهم وكان معى دريهمات فرقتها عليهم وجعلت أحدثهم حتى أنسوا بى، ثم قلت: من منكم ضرب أكثر؟ قال: فأخذوا يتفاخرون حتى اتفقوا على واحد منهم أنه أكثرهم ضربا وأشدهم صبرا، قال: فقلت له أسألك عن شىء، فقال: هات، فقلت: شيخ ضعيف ليس صناعته كصناعتكم ضرب على الجوع للقتل سياطا يسيرة إلا أنه لم يمت وعالجوه وبرأ إلا أن موضعا فى صلبه يوجعه وجعا ليس له عليه صبر، قال: فضحك، فقلت: مالك؟ قال: الذى عالجه كان حائكا، قلت: إيش الخبر؟ قال ترك فى صلبه قطعة لحم ميته لم يقلعها، قلت: فما الحيلة؟ قال يبط صلبه وتؤخذ تلك القطعة ويرمى بها، وإن تركت بلغت الى فؤاده فقتلته.

قال: فخرجت من الحبس فدخلت على أحمد ابن حنبل فوجدته على حالته، فقصصت عليه القصة، قال: ومن يبطه، قلت: أنا. قال: أوتفعل؟ قلت: نعم. قال: فقام فدخل البيت ثم خرج وبيده مخدتان وعلى كتفه فوطة فوضع إحداهما لى والأخرى له ثم قعد عليها

(١) هذه المحنة هى فتنة خلق القرآن، ولقد اشتدت هذه الفتنة حين اعتقد الخليفة المأمون برأى المعتزلة فى أن القرآن الكريم خلق من مخلوقات الله، وطلب من ولاته فى الأمصار عزل القضاة الذين لا يقولون برأيهم، إلا أن أحمد بن حنبل كان من المدافعين عن القرآن كلام الله ورفض رأى المعتزلة فى حين أن أكثر العلماء أظهروا قبولهم لرأى المأمون خوفا منه، ومات المأمون فى خضم الاختلاف فى الرأى وولى المعتصم الذى امتحن الإمام أحمد وأمر بضربه، وحبسه أكثر من سنتين، ولما تولى الخليفة الواثق أمر الإمام أن يختفى، فاختفى حتى تولى الخليفة المتوكل الذى خالف ما كان عليه سلفه من الخلفاء ونهى عن الجدل فى خلق القرآن، وأكرم الإمام أحمد ورفع قدره.

وقال: استخر الله، فكشفت الفوطة عن صلبه وقلت: أرنى موضع الوجع، فقال: ضع إصبعك عليه فإنى أخبرك به، فوضعت إصبعى وقلت: ها هنا موضع الوجع؟ قال: هاهنا أحمد الله على العافيه، فقلت: ها هنا؟ قال: هاهنا أحمد الله على العافيه، فقلت: هاهنا؟ قال: هاهنا أسأل الله العافيه، قال: فعلمت انه موضع الوجع، قال: فوضعت المبضع عليه فلما أحس بحرارة المبضع وضع يده على رأسه وجعل يقول: اللهم أغفر للمعتصم، حتى بططته فأخذت القطعه الميتة ورميت بها وشددت العصابة عليه وهو لا يزيد على قوله اللهم أغفر للمعتصم، قال: ثم هدأ وسكن ثم قال: كأنى كنت معلقا فأصدرت، قلت: يا أبا عبد الله إن الناس إذا امتحنوا محنة دعوا على من ظلمهم ورأيتك تدعو للمعتصم، قال: إنى أفكرت فيما تقول وهو ابن عم رسول الله صلى الله عليه و سلم فكرهت أن آتى يوم القيامة وبينى وبين أحد من قرابته خصومة، هو منى فى حل.

من كتاب (روضة العقلاء ونزهة الفضلاء) لابن حبان.

□□□

ابن تاشفين وملوك الطوائف

لما ملك يوسف ابن تاشفين اللمتونى[1] المغرب وبنى مدينتى مراكش وتلمسان الجديدة وأطاعته البربر مع شكيمتها الشديدة وتمهدت له الأقطار الطويلة المديدة، تاقت نفسه إلى العبور لجزيرة الأندلس فهم بذلك، وأخذ فى إنشاء المراكب والسفن، ليعبر فيها فلما علم بذلك ملوك الأندلس كرهوا إلمامه بجزيرتهم، وأعدوا له العدة والعدد، وصعبت عليهم مدافعته، وكرهوا أن يكونوا بين عدوين، الفرنج من شمالهم والمسلمين من جنوبهم. وكانت الفرنج تشتد وطأتها عليهم، وتغير تنهب وربما يقع بينهم صلح على شىء معلوم كل سنة يأخذونه من المسلمين، والفرنج ترهب ملك المغرب يوسف بن تاشفين، إذ كان له اسم كبير وصيت عظيم لنفاذ أمره وسرعة تملكه بلاد المغرب وانتقال الأمر إليه فى أسرع وقت، مع ما ظهر لأبطال الملثمين ومشايخ صنهاجة فى المعارك من ضربات السيوف التى تقد الفارس والطعنات التى تنظم الكلى، فكان له بسبب ذلك ناموس ورعب فى قلوب المنتدبين لقتاله.

وكان ملوك الأندلس يفيئون إلى ظله ويحذرونه خوفا على ملكهم مهما عبر إليهم وعاين بلادهم، فلما رأوا ما دلهم على عبوره إليهم وعلموا ذلك راسل بعضهم بعضا يستنجدون آراءهم فى أمره وكان مفزعهم فى ذلك إلى المعتمد بن عباد لأنه أشجع القوم وأكبرهم مملكة، فوقع اتفاقهم على مكاتبته لما تحققوا أنه يقصدهم يسألونه الإعراض عنهم وأنهم تحت طاعته، فكتب عنهم كاتب من أهل الأندلس كتابا، وهو أما بعد فإنك إن أعرضت عنا نسبت إلى كرم ولم تنسب إلى عجز، وإن أجبنا داعيك نسبنا إلى عقل ولم ننسب إلى وهن وقد اخترنا لأنفسنا أجمل نسبتينا، فاختر لنفسك أكرم نسبتيك فإنك بالمحل الذى لا يجب أن تسبق فيه إلى مكرمة، وإن فى استبقائك ذوى البيوت ما شئت من دوام لأمرك وثبوت والسلام.

(١) هو يوسف بن تاشفين الصنهاجى (٤٥٤ - ٥٠٠هـ/١٠٦٢ - ١١٠٧م)، ثانى ملوك المرابطين فى المغرب، اتخذ لقب أمير المسلمين وناصر الدين، يعتبر المؤسس الفعلى لإمبراطورية المرابطين فى المغرب والأندلس من حدود تونس حتى غانا جنوبا والأندلس شمالا، أنقذ الأندلس من ضياع محقق فى موقعة الزلاقة ضد الصليبيين بعد ما استنجد به المعتمد بن عباد أمير أشبيليه حيث وحد بعدها ملوك الطوائف فى الأندلس تحت حكمه عام ١٠٩٠م، أصله من موريتانيا من قبائل (صنهاجة اللثام) البربرية، ومع كونه لا يتكلم العربية إلا إنه كان شديد الزهد والورع وعرف بالتقشف والشجاعة وتقريب العلماء.

فلما وصله الكتاب مع تحف وهدايا، وكان يوسف بن تاشفين لا يعرف باللسان العربى لكنه ذكى الطبع يجيد فهم المقاصد وكان له كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية، فقال له: أيها الملك هذا الكتاب من ملوك الأندلس يعظمونك فيه ويعرفونك أنهم أهل دعوتك وتحت طاعتك ويلتمسون منك أن لا تجعلهم فى منزلة الأعادى فإنهم مسلمون وذوو بيوتات فلا تغير بهم وكفى بهم من وراءهم من الأعداء الكفار، وبلدهم ضيق لا يحتمل العساكر، فأعرض عنهم إعراضك عمن أطاعك من أهل الغرب. فقال يوسف بن تاشفين لكاتب: فما ترى أنت؟ فقال: أيها الملك أعلم أن تاج الملك وبهجته شاهده الذى لا يرد، فإنه خليق بما حصل فى يده من الملك والمال أن يعفو إذا استعفى وأن يهب إذا استوهب وكلما وهب جليلا جزيلا كان لقدره أعظم، فإذا عظم قدره تأصل ملكه وإذا تأصل ملكه تشرف الناس بطاعته وإذا كانت طاعته شرفا جاءه الناس ولم يتجشم المشقة إليهم،وكان وارث الملك من غير إهلاك لآخرته، واعلم أن بعض الملوك الحكماء الأكابر البصراء بطريق تحصيل الملك، قال: من جاد ساد ومن ساد قاد ومن قاد ملك البلاد، فلما ألقى الكاتب هذا الكلام على السلطان يوسف بلغته فهمه وعلم صحته، فقال للكاتب: أجب القوم واكتب بما يجب فى ذلك واقرأ على كتابك، فكتب الكاتب: بسم الله الرحمن الرحيم من يوسف بن تاشفين سلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته تحية من سالمكم وسلم عليكم وإنكم مما فى أيديكم من الملك فى أوسع إباحة مخصوصين منا بأكرم إيثار وسماحة فاستديموا وفاءنا بوفائكم واستصلحوا إخاءنا بإصلاح إخائكم والله ولى التوفيق لنا ولكم والسلام. فلما فرغ من كتابه قرأه على يوسف بن تاشفين بلسانه فاستحسنه وقرن به ما يصلح لهم من التحف ودرق اللمط التى لا توجد إلا ببلاده وأنفذ ذلك إليهم، فلما وصلهم ذلك وقرأوا كتابه فرحوا به وعظموه وسروا بولايته وتقوت نفوسهم على دفع الفرنج عنهم وأزمعوا إن رأوا من الفرنج ما يريبهم أنهم يرسلون إلى يوسف بن تاشفين ليعبر إليهم أو يمدهم بإعانة منه.

وكان ملك الإفرنج الأذفونش[1]، لما وقعت الفتنة بالأندلس وثار الخلاف وكان كل من حاز بلدا وتقوى فيه ملكه وادعى الملك وصار مثل ملوك الطوائف فطمع فيهم، الأذفونش بسبب ذلك وأخذ كثيرا من ثغورهم. فقوى شأنه وعظم سلطانه وكثرت عساكره وأخذ طليطلة من صاحبها القادر بالله بن المأمون يحيى بن ذى النون بعد أن حاصرها سبع سنين، وكان أخذه لها فى منتصف محرم سنة ثمان وسبعين وأربعمائة فزاد – لعنه الله تعالى – بملكه طليطلة قوة إلى قوته وأخذ يجوس خلال الديار ويستفتح المعاقل والحصون.

من كتاب (الروض المعطار فى خبر الأقطار) للحميرى.

---

(١) هو الملك ألفونسو السادس ملك قشتالة وليون الإسبانيتين.

قبة الوليد وقاضى المدينة

فأخبرنى أبو الأحوص القاضى محمد بن الهيثم؛ قال: حدثنا أصبغ بن الفرج، عن ابن عيينة، ورواه يعقوب بن إبراهيم بن سعد، عن أبيه: أن الوليد بن يزيد[1] كان أمر بقبة من حديد، أن نعمل وتركب على ظهر الكعبة وأركانها، ونخرج لها أجنحة لتظله إذا حج، وطاف هو ومن أحب من أهله، وفتياته ويطوف الناس من وراء القبة، فحملها على الإبل من الشام، ووجه معها قائدا من قواد أهل الشام فى ألف فارس، وأرسل معه مالا يقسمه فى أهل المدينة، فقدم بها، فنصبت فى مصلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، ففزع أهل المدينة، وقالوا: إلى من نفزع؟ فقالوا: إلى سعد بن إبراهيم، فأتوه، وأخبروه الخبر، وكان على قضاء المدينة، فأمرهم أن يضربوها بالنار، فقالوا: لا نطيق ذل، معها قائد فى ألف فارس، فدعا مولى له، فقال: هات الجراب، فأتاه بجراب فيه درع عبد الرحمن التى شهد فيها بدرا، فصبها عليه، وقال: هلم بغلتى، فركبها فما تخلف يومئذ قرشي، ولا أنصاري، حتى أتاها، وقال: على بالنار، فأضرمها بالنار ثم قال: ليس إلا هذا، لا الله إذا حتى نصنع بها كما صنع بالعجل لنحرقنه، ثم لننسفنه فى اليم نسفا، فغضب القائد، فقيل له: هذا قائد أمير المؤمنين والناس معه، لا طاقة لك به، فانصرف إلى الشام.

قال: سعد بن إبراهيم: وشبع عبيد أهل المدينة من الناطف من حديدها، قال: إبراهيم: فكتب الوليد إلى سعد: أن استخلف عبيد الله بن عمر على القضاء وأقدم علينا، فولى عبيد الله، وركب إلى الشام، وأقام بباب الخليفة أياما لا يؤذن له حتى أضر به طول المقام، فبينما هو ذات عشية إذا هو بفتى فى صفراء سكران، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا خال أمير المؤمنين، سكران، يطوف فى المسجد، فقال: لمولى له: هلم السوط، فأتاه به، وقال: على به، فأتى به فضربه فى المسجد ثمانين سوطا، وركب بغلته، ومضى راجعا إلى المدينة، وأدخل الفتى على الوليد مجلودا، فقال: من فعل هذا به؟ قالوا: مدنى كان فى المسجد، فقال: على به، فلحق على مرحلة، فرد، فدخل عليه سعد، فقال له: يا أبا

---

(١) هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك، الخليفة الأموى الحادى عشر (١٢٥ - ١٢٦هـ/ ٧٤٣ - ٧٤٤م)، تولى الخلافة بعد موت عمه هشام بن عبد الملك وكانت مدة حكمه قصيرة بلغت سنة واحدة وشهرين، عرف الوليد باستحلاله المحارم وارتكابه البدع والموبقات وشربه للخمر، لذلك دارت بينه وبين ابن عمه يزيد بن الوليد حربا عام ١٢٦هـ قتل فيها، ويقال إن القبة التى عزم على نصبها فوق الكعبة كان ينتوى أن يشرب فيها الخمر.

إســحاق ماذا فعلت بابن أخيك؟ فقال: يا أمير المؤمنين إنك وليتنا أمرا من أمورك، وإنى رأيت حقا لله ضائعا، ســكران يطوف فى المسجد، وفيه الوفود ووجوه الناس، فكرهت أن يرجــع الناس عنك بتعطيــل الحدود، فأقمت عليه الحد؛ قال: جزاك الله خيرا، وأمر له بمال وصرفه إلى المدينة، ولم يذاكره شيئا من أمر القبة.

من كتاب (أخبار القضاة) لوكيع.

□□□

obeikandl.com

يزيد بين سليمان والوليد

كتب الحجاج إلى الوليد بن عبد الملك: إن آل المهلب خانوا مال الله، وهربوا منى ولحقوا بسليمان، فلما بلغ الوليد مكانه عند سليمان أخيه هون عليه بعض ما كان فى نفسه، وطار غضبا للمال الذى ذهبوا به، وكتب سليمان إلى أخيه الوليد: إن يزيد بن المهلب عندى وقد آمنته، وإنما عليه ثلاثة آلاف ألف، كان الحجاج أغرمهم ستة آلاف ألف، فأدى ثلاثة آلاف ألف، وبقيت ثلاثة آلاف ألف، فهن على، فكتب إليه: لا والله لا أؤمنه حتى تبعث به إلي، فكتب إليه: لئن أنا بعثت به لأجيئن معه، فانشدك الله أن لا تفضحنى ولا أن تخفرنى، فكتب إليه الوليد: والله لئن جئتنى به لا أؤمنه، فقال يزيد: ابعثنى إليه، فوالله ما أحب أن أوقع بينك وبينه عداوة وحربا، ولا أن يتشاءم بى لكما الناس، ابعث إليه بى وأرسل معى ابنك، واكتب إليه بألطف ما قدرت عليه، فأرسل ابنه أيوب معه، وكان الوليد أمره أن يبعث به إليه فى وثاق، فبعثه إليه وقال لابنه: إذا أردت أن تدخل عليه فادخل أنت ويزيد فى سلسلة على الوليد، ففعل ذلك حتى انتهيا إلى الوليد فدخلا عليه، فلما رأى الوليد ابن أخيه مع يزيد فى سلسلة قال: والله لقد بلغنا من سليمان.

ثم إن الغلام دفع كتاب أبيه إلى عمه وقال: يا أمير المؤمنين، نفسى فداؤك، لا تخفر ذمة أبى وأنت أحق من منعها، ولا تقطع منا رجاء من رجا السلامة فى جوارنا لمكاننا منك، ولا تذل من رجا العز فى الانقطاع إلينا لعزنا بك، وقرأ الكتاب: «لعبد الله الوليد أمير المؤمنين من سليمان بن عبد الملك، أما بعد يا أمير المؤمنين فوالله إنى لأظن لو استجار بى عدو قد نابذك وجاهدك فأنزلته وأجرته، فإنك لا تذل جارى ولا تخفر جوارى، بل إنى لم أجر إلا سامعا مطيعا حسن البلاء والأثر فى الإسلام هو وأبوه وأهل بيته، وبعد فقد بعثت به إليك، فإن كنت إنما تعزو قطيعتى والإخفار لذمتى والإبلاغ فى مساءتى، فقد قدرت إن أنت فعلت ذلك، وأنا أعيذك بالله من اجترار قطيعتى وانتهاك حرمتى وترك يدى وصلتى، فوالله يا أمير المؤمنين ما تدرى مل بقائى وبقاؤك، ولا متى يفرق الموت بينى وبينك، فإن استطاع أمير المؤمنين، أدام الله سروره أن لا يأتى علينا أجل الوفاة إلا وهو لى واصل ولحقى مؤد وعن مساءتى نازع، فليفعل، والله يا أمير المؤمنين ما أصبحت لشىء من أمور الدنيا بعد تقوى الله تعالى فيها بأسر منى برضاك وسرورك، ولرضاك مما ألتمس به

رضوان الله، فإن كنت يا أمير المؤمنين تريد يوما من الدهر مسرتى وصلتى وكرامتى وإعظام حقى فتجاوز لى عن يزيد، وكل ما طلبته به فهو على".

فلما قرأ كتابه قال: لقد شققنا على سليمان. ثم دعا ابن أخيه فأدناه منه، ثم تكلم يزيد فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم قال: يا أمير المؤمنين، إن بلاءكم عندنا أحسن البلاء، فمن ذلك فلسنا ناسيه، ومن يكفر فلسنا كافريه، وقد كان من بلائنا، أهل البيت، فى طاعتكم والطعن فى أعين أعدائكم فى المواطن العظام فى المشارق والمغارب ما إن المنة فيه عظيمة. فقال له: اجلس. فجلس فآمنه وكف عنه، ورجع إلى سليمان. وسعى إخوته فى المال الذى عليه، وكتب إلى الحجاج: إنى لم أصل إلى يزيد وأهل بيته مع سليمان، فاكفف عنهم، فلما رأى ذلك الحجاج كف عنهم.. وكان أبو عيينة عند الحجاج عليه ألف ألف درهم فتركها له، وكف عن حبيب بن المهلب، وأقام يزيد عند سليمان تسعة أشهر فى أرغد عيش وأنعم بال لا تأتى سليمان هدية إلا أرسل نصفها إليه.

وقال بعض جلساء يزيد له: لم لا تتخذ لك دارا فقال: وما أصنع بها ولى دار حاصلة مجهزة على الدوام فقال له: وأين هى قال: إن كنت متوليا فدار الإمارة، وإن كنت معزولا فالسجن.

من كتاب(وفيات الأعيان) لابن خلكان.

□□□

من زواج الخلفاء

دخلت سنة عشر ومائتين وفيها أخذ إبراهيم بن المهدى[1] ليلة الأحد لثلاث عشرة خلت من ربيع الآخر وهو منتقب بين امرأتين فى زى امرأة، أخذه حارس أسود ليلا فقال: من أنتن؟ وأين تردن فى هذا الوقت؟ فأعطاه إبراهيم خاتم ياقوت كان فى إصبعه له قدر عظيم وقال: خلنا ولا عليك أن تعلم من نحن، فلما نظر الحارس إلى الخاتم استراب وقال فى نفسه: هذا خاتم رجل له شأن، فرفعهم إلى صاحب المسلحة فأمرهن أن يسفرن وتمنع إبراهيم، فجذبه فبدت لحيته، فرفعه إلى صاحب الجسر فعرفه فذهب به إلى المأمون فاعلم به، فأمر بالاحتفاظ به فى الدار، فلما كان غداة الأحد أقعد فى دار المأمون لينظر إليه بنو هاشم والقواد والجند، وصيروا المقنعة التى كان منتقبا بها فى عنقه والملحفة فى صدره ليراه الناس ويعلموا كيف أخذ، فلما كان يوم الخميس حول إلى منزل أحمد بن أبى خالد فحبس عنده.

وفى هذه السنة بنى المأمون ببوارن بنت الحسن بن سهل فى شهر رمضان وكان الحسن بالصلح فشخص المأمون إلى الصلح، وأمر بحمل إبراهيم بن المهدى خلفه وكان العباس بن المأمون قد تقدم أباه على الظهر ووافى المأمون وقت العشاء فأفطر هو والحسن والعباس ودينار بن عبد الله قائم على رجله حتى فرغوا من الإفطار، فدعا المأمون بشراب، فأتى بجام ذهب فصب فيه وشرب، ومد يده بجام فيه شراب إلى الحسن فتباطأ عنه الحسن، فغمزه دينار بن عبد الله، فقال الحسن: يا أمير المؤمنين أشربه بإذنك وأمرك، فقال له: لولا أمرى لم أمد يدى إليك، فأخذ الجام فشربه، فلما كان فى الليلة دخل على بوران، فلما جلس المأمون معها نثرت عليها جدتها ألف درة كانت فى صينية ذهب، وكان تحتهما حصير ذهب معمول عمل السامان، فقال المأمون: قاتل الله أبا نواس[2] كأنه

(١) هو ابراهيم بن المهدى بن أبى جعفر المنصور (١٦٢ - ٢٢٤هـ / ٧٧٩ - ٧٣٩م)، أخو الخليفة هارون الرشيد، اشتهر بالغناء وأبدع فيه وأتقنه، فكان من اعلم الناس فى ذلك الوقت بالنغم والإيقاع، كان أسود اللون وافر الفضل غزير الأدب سخى الكف، لم ير فى أولاد الخلفاء قبله أفصح منه لسانا ولا أحسن منه شعرا، بويع بالخلافة أثناء خلافة المأمون، لكنه لم يقم فى الخلافة إلا أقل من سنتين، وسبب ذلك أن المأمون جعل ولاية العهد لعلى بن موسى الرضا عندما كان فى خراسان، فشق ذلك على العباسيين ببغداد خوفا من انتقال الأمر عنهم إلى العلويين فبايعوا ابراهيم عم المأمون وكان ذلك سنة إحدى ومائتين فى بغداد وخلعوا المأمون، لكن إبراهيم عندما عرف بعودة المأمون من خراسان خاف على نفسه فاستخفى، لكن المأمون عفى عنه فى النهاية.

(٢) هو الحسن بن هانئ الدمشقى الملقب بأبى نواس، من أشهر شعراء العصر العباسى، ولد فى الأحواز

حاضر هذا المنظر فى قوله: حصباء در على أرض من الذهب.

ثم أمر المأمون أن تجمع، وسألها عن عدد الدر كم كان، فقالت: ألف حبة، فأمر بعدها فنقصت عشرا، فقال: من أخذها فليردها، فقال حسين رجله: يا أمير المؤمنين إنما نثر لنأخذه فنقصت عشرا وإلا فالعقد أولى به، قال: ردها فإنى أخلفها عليك، فردت فجمعها المأمون فى الآنية كما كانت ووضع فى حجرها، وقال: هذه نحلتك وسلى حوائجك، فامسكت، فقالت جدتها: كلمى سيدك وسليه حوائجك فقد أمرك، فسألته الرضى عن إبراهيم بن المهدى، فقال: قد فعلت، وسألته الإذن لأم جعفر فى الحج، فأذن لها، وألبستها أم جعفر البدنة الأموية وابتنى بها من ليلته، وأوقد فى تلك شمعة عنبر فيها أربعون منا فى تنور ذهب، فأنكر المأمون ذلك عليهم وقال هذا سرف، فلما كان من الغد دعا إبراهيم بن المهدى، فجاء يمشى من شاطئ دجلة، فلما دخل على المأمون قال له: هيه يا إبراهيم، فقال: يا أمير المؤمنين ولى الثأر محكم فى القصاص والعفو أقرب للتقوى، ومن تناوله الاغترار بما مد له من أسباب الشقاء أمكن عادية الدهر من نفسه، وقد جعلك الله فوق كل ذى ذنب كما جعل كل ذى ذنب دونك، فإن تعاقب فبحقك وإن تعف فبفضلك، قال: بل أعفو يا إبراهيم، فكبر وسجد.

فقال المأمون: أقول ما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم وهو أرحم الراحمين. فأما الحسن بن سهل فإنه أضاف المأمون وجميع من معه وخلع على القواد على مراتبهم وحملهم ووصلهم، وكان مبلغ ما لزمه عليهم خمسين ألف ألف درهم سوى ما نثره وكان كتب رقاعا فيها أسماء ضياعه ونثرها على القواد وبنى هاشم، فمن وقعت فى يده رقعة منها فيها اسم ضيعة بعث بها فتسلمها.

من كتاب (تجارب الأمم وتعاقب الهمم) لابن مسكويه.

بخراسان من أب عربى وأم فارسية عام ١٤٥هـ/٧٦٢م، عرف بشاعر الخمر لمجونه. امتاز بالشعر الخليع الإباحي. قيل عنه إنه تاب واتجه إلى الزهد فى آخر حياته، المرجح أن أبوه كان من جند آخر خلفاء بنى أمية مروان بن محمد فى دمشق. اتخذه الأمين نديما له غير أن سيرة أبى نواس جعلت منادمته الأمين تشيع بين الناس، وفى نطاق الصراع بين الأمين والمأمون كان خصوم الأمين يعيبون عليه اتخاذ شاعرا خليعا نديما له ويخطبون بذلك على المنابر، فيضطر الأمين إلى حبس شاعره وكثيرا ما كان يشفع له الفضل بن الربيع عند الخليفة فيخرجه من سجنه، توفى أبو نواس ببغداد عام ١٩٩هـ/٨١٣م.

ومن الحب ما قتل!

تزوج والدى الشيخ حسن الجبرتى بنت رمضان جلبى، وكانت به بارة وله مطيعة، ومن جملة برها له وطاعتها أنها كانت تشترى له من السرارى[1] الحسان من مالها، وتنظمهن بالحلى والملابس، وتقدمهن إليه، وتعتقد حصول الأجر والثواب لها بذلك، وكان يتزوج عليها كثيرا من الحرائر، ويشترى الجوارى، فلا تتأثر من ذلك، ولا يحصل عندها ما يحصل فى النساء من الغيرة.

ومن الوقائع الغريبة أنه لما حج فى سنة ١١٥٦هـ، واجتمع به الشيخ عمر الجلبى بمكة، أوصاه الحلبى بأن يشترى له جارية بيضاء تكون بكرا دون البلوغ، وصفتها كذا وكذا، فلما عاد من الحج طلب اليسرجية الجوارى لينتقى منهن المطلوب، فلم يزل حتى وقع على الغرض فاشتراها، وأدخلها عند زوجته المذكورة حتى يرسلها مع من أوصاه بإرسالها صحبته.

فلما حضر وقت السفر أخبرها بذلك، فقالت: إنى أحببت هذه الوصيفة حبا شديدا، ولا أقدر على فراقها، وليس لى أولاد، وقد جعلتها مثل ابنتي. وبكت الجارية أيضا وقالت لا أفارق سيدتى، ولا أذهب من عندها أبدا. فقال: وكيف يكون العمل؟ قالت: أدفع ثمنها من عندى، واشتر أنت غيرها. ففعل، ثم إنها أعتقتها، وعقدت لزوجها عليها، وجهزتها وفرشت لها مكانا على حدتها، وبنى بها والدى فى سنة ١١٦٥هـ، وكانت لا تقدر على فراقها ساعة، مع كونها صارت ضرتها وولدت له أولادا.

فلما كان فى سنة ١١٨٢هـ، مرضت الجارية، فمرضت لمرضها، وثقل عليهما المرض، فقامت الجارية فى ضحوة النهار، فنظرت لمولاتها وكانت فى حالة من الإغماء، فبكت وقالت: إلهى..إن كنت قدرت موت سيدتى، اجعل يومى قبل يومها، ثم رقدت، وماتت تلك الليلة، فأضجعوها بجانبها.

فاستيقظت مولاتها آخر الليل، وجستها بيدها، وصارت تقول: زليخا ..زليخا، فقالوا لها: إنها نائمة، فقالت: إن قلبى يحدثنى أنها ماتت، ورأيت فى منامى ما يدل على ذلك، فقالوا لها: حياتك الباقية، فقامت وهى تقول: لا حياة لى بعدها. وصارت تبكى وتنتحب حتى طلع النهار، وغسلوها بين يديها وشالوا جنازتها، ورجعت هى إلى فراشها، وماتت آخر النهار، وخرجوا بجنازتها فى اليوم التالى. وهذا من أعجب ما شاهدته ورأيته ووعيته، وكان سنى إذ ذاك أربع عشرة سنة.

من كتاب (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) للجبرتى.

---

(١) الجوارى.

نصيحة حكيم إلى حاكم

بينما أبو جعفر المنصور فى الطواف بالبيت ليلا إذ سمع قائلا يقول، اللهم إنى أشكو إليك ظهور البغى والفساد فى الأرض، وما يحول بين الحق وأهله من الطمع. فخرج المنصور، فجلس ناحية من المسجد، وأرسل إلى الرجل يدعوه، فصلى ركعتين واستلم الركن وأقبل مع الرسول فسلم عليه بالخلافة، فقال المنصور: ما الذى سمعتك تذكر من ظهور الفساد والبغى فى الأرض؟ وما الذى يحول بين الحق وأهله من الطمع؟ فوالله لقد حشوت مسامعى ما أمرضنى.

فقال: إن أمنتنى يا أمير المؤمنين أعلمتك بالأمور من أصولها، وإلا احتجرت منك واقتصرت على نفسى فلى فيها شاغل. قال: فأنت آمن على نفسك فقل. فقال: يا أمير المؤمنين، إن الذى دخله الطمع وحال بينه وبين ما ظهر فى الأرض من الفساد والبغى لأنت، فقال: فكيف ذلك ويحك! يدخلنى الطمع والصفراء والبيضاء فى قبضتى والحلو والحامض عندى؟

قال: وهل دخل أحد من الطمع ما دخلك، إن الله استرعاك أمر عباده وأموالهم، فأغفلت أمورهم، واهتممت بجمع أموالهم، وجعلت بينك وبينهم حجابا من الجص والآجر، وأبوابا من الحديد، وحراسا معهم السلاح، ثم سجنت نفسك عنهم فيها، وبعثت عمالك فى جبايات الأموال وجمعها، وقويتهم بالرجال والسلاح والكراع، وأمرت أن لا يدخل عليك أحد من الرجال إلا فلان وفلان نفرا سميتهم، ولم تأمر بإيصال المظلوم ولا الملهوف ولا الجائع العارى ولا الضعيف الفقير إليك، ولا أحد إلا وله فى هذا المال حق، فلما رآك هؤلاء النفر الذين استخلصتهم لنفسك، وآثرتهم على رعيتك، وأمرت أن لا يحجبوا دونك، تجبى الأموال وتجمعها، قالوا: هذا قد خان الله فما لنا لا نخونه، فائتمروا أن لا يصل إليك من علم أخبار الناس شيء إلا ما أرادوا، ولا يخرج لك عامل فيخالف أمرهم إلا خونوه عندك ونفوه، حتى تسقط منزلته، فلما انتشر ذلك عنك وعنهم أعظمهم الناس وهابوهم وصانعوهم، فكان أول من صانعهم عمالك بالهدايا والأموال، ليقووا بها على ظلم رعيتك، ثم فعل ذلك ذوو المقدرة والثروة من رعيتك، لينالوا ظلم من دونهم، فامتلأت بلاد الله بالطمع ظلما وبغيا وفسادا، وصار هؤلاء القوم شركاءك فى سلطانك وأنت غافل، فإن جاء متظلم حِيل بينك وبينه..فإن أراد رفع قِصته إليك عند ظهورك،

وجـدك قد نهيت عن ذلك. ووقفـت للناس رجلا ينظر فى مظالمهم. فإن جاء ذلك المتظلم فبلغ بطانتك خبره. سألوا صاحب المظالم أن لا يرفع مظلمته إليك فإن المتظلم منه له بهم حرمة. فأجابهم خوفا منهم. فلا يزال المظلوم يختلف إليه ويلوذ به. ويشـكو ويسـتغيث وهـو يدفعـه. فإذا أجهد وأحرج ثم ظهرت صرخ بـين يديك. فيضرب ضربا مبرحا يكون نكالا لغيره. وأنت تنظر فما تنكر. فما بقاء الإسلام على هذا؟

وقد كنت يا أمير المؤمنين أسـافر إلى الصين. فقدمتها مرة وقد أصيب ملكها بسـمعه. فبكى بكاء شـديدا. فحثه جلسـاؤه على الصبر. فقال أما إنى لسـت أبكى للبلية النازلة بـى. ولكنى أبكى لمظلوم يصرخ بالبـاب فلا أسمع صوته. ثم قال: أما إذ قد ذهب سمعى فـإن بصـرى لم يذهب. نادوا فى الناس أن لا يلبس ثوبـا أحمر إلا متظلم. ثم كان يركب الفيل طرفى النهار وينظر هل يرى مظلوما. فهذا يا أمير المؤمنين مشرك بالله. بلغت رأفته بالمشـركين هذا المبلغ وأنت مؤمن بالله من أهل بيت نبيه لا تغلبك رأفتك بالمسـلمين على شح نفسك. فإن كنت إنما تجمع المال لولدك. فقد أراك الله عبرا فى الطفل يسقط من بطن أمه ماله على الأرض مال. وما من مال إلا ودونه يد شحيحة تحويه. فما يزال الله يلطف بذلك الطفل. حتى تعظم رغبة الناس إليه. ولسـت الذى تعطى. بل الله الذى يعطى من يشـاء ما يشـاء. فإن قلت إنما تجمع المال لتشـد به السلطان. فقد أراك الله عبرا فى بنى أمية. ما أغنى عنهم جمعهم من الذهب. وما أعدوا من الرجال والسلاح والكراع حين أراد الله بهـم مـا أراد. وإن قلت إنما تجمع المال لطلب غاية هى أجسـم من الغاية التى أنت فيها. فوالله ما فوق ما أنت فيه إلا منزلة لا تدرك إلا بخلاف ما أنت عليه.

يا أمير المؤمنين. هل تعاقب من عصاك بأشد من القتل؟ فقال المنصور: لا. فقال: فكيف تصنـع بالملك الذى خولك ملك الدنيا وهـو لا يعاقب من عصاه بالقتل. ولكن بالخلود فى العذاب الأليم؟ قد رأى ما عقد عليه قلبك. وعملته جوارحك. ونظر إليه بصرك. واجترحته يداك. ومشـت إليه رجلاك. هل يغنى عنك ما شـححت عليه من ملك الدنيا إذا انتزعه مـن يدك ودعاك إلى الحسـاب؟ قـال: فبكى المنصور، ثم قـال: ليتنى لم أخلق. ويحك! فكيـف أحتـال لنفس؟ فقال: يا أمير المؤمنين. إن للناس أعلاما يفزعون إليهم فى دينهم. ويرضون بهم فى دنياهم. فاجعلهم بطانتك يرشـدوك. وشاورهم فى أمرك يسددوك. قال: قـد بعثت إليهم فهربوا منى. قال: خافـوك أن تحملهم على طريقتك. ولكن افتح بابك.

وسهل حجابك، وانصر المظلوم، واقمع الظالم، وخذ الفيء والصدقات من حلها، واقسمها بالحق والعدل على أهلها، وأنا ضامن عنهم أن يأتوك ويساعدوك على صلاح الأمة. وجاء المؤذنون فسلموا عليه، فصلى وعاد إلى مجلسه، وطلب الرجل فلم يوجد.

من كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسي.

□□□

obeikandl.com

الراهب والخليفة عمر

روى أسامة بن زيد، عن زيد بن أسلم، عن أبيه، قال: أخبرنى عمر بن الخطاب. قال: خرجت مع أناس من قريش فى الجاهلية فى تجارة إلى الشام، فبينما أنا فى سوق من أسواقها بدمشق إذ أنا ببطريق قد جاءنى فأخذ بعنقى، فذهبت أنازعه نفسى، فقيل لى: لا تفعل فليس لك منه النصف، قال: فخرجت معه فأدخلنى كنيسة فإذا تراب كثير متراكم بعضه على بعض، فدفع إلى بمجرفة وفأسا وزنبيلا، فقال لى: انقل هذا التراب واحفر لى هاهنا بئرا.

قال: فجلست أفكر فى أمرى كيف أصنع. قال: فأتانى فى الهاجرة وعليه سبنية قصب، أرى سائر جسده منها، ولم أحرك شيئا، فقال لى: وإنك على ما أرى ما حركت شيئا، ثم ضم كفه وأصابعه يضرب بها وسط رأسى، فقلت فى نفسى: ثكلتك أمك يا عمر، أو قد بلغت ما أرى!

قال: فقمت إليه بالمجرفة فضربت بها رأسه فنثرت دماغه وخر ميتا، وخرجت إلى الطريق، وأنا لا أدرى أين أسلك من بلاد الله تعالى، فمشيت بقية يومى وليلتى من الغد حتى أصبحت، ثم انتهيت إلى دير فاستظللت بظله، فخرج إلى رجل من أهل الدير، فقال: يا عبد الله! ما يقعدك ها هنا؟: فقلت: أضللت أصحابى. قال: والله ما أنت على طريق، وإنك لتنظر بعين خائف، قم فادخل الدير فأصب من الطعام والشراب، وأقم ما بدا لك.

قال: فدخلت فأتانى بطعام وشراب وألطف لى، ثم صعد فى النظر وخفضه، ثم قال: يا هذا! لقد علم أهل الكتاب إنه لم يبق على وجه الأرض رجل أعلم منى اليوم، وإنى أجد صفتك، إنك الذى تخرجنا من هذا الدير، وتغلب على هذا البلاد. فقلت: أيها الرجل! ذهبت من الأمر فى غير مذهب. قال: ما اسمك؟ قلت: عمر بن الخطاب. قال: أنت والله الذى لا إله إلا هو صاحبنا من غير شك، فاكتب لى على ديرى هذا وأهله وما فيه أمانا، قال: قلت: أيها الرجل! قد صنعت معروفا فلا تكدره، قال: إنما هو كتاب فى رق، وليس عليك فيه مؤونة ولا شىء، فإن كنت صاحبنا فهو الذى أريد، وإن تكن الأخرى فأى شىء يضرك؟

قلت: هات، فكتبت له أمانا ثم ختمته ودفعته إليه. قال: فدعا بنفقة وثوب فدفعها إلى، ثم دعا بأتان قد أوكفت، فقال: أتسمع؟ قلت: نعم. قال: اخرج على هذه الأتان

فإنهـا لا تمـر بقوم ولا أهل ديـر إلا علفوها، حتى إذا بلغت مأمنـك فخل عنها واضرب وجهها مدبرة، فإنها تعلف وتسقى حتى تصل. قال: فركبتها ثم سرت عليها حتى أدركت أصحابى وهم متوجهون، فلم أمر بقوم إلا سـقوها وعلفوها حتى لحقت أصحابى، فنزلت عنها، وضربت وجهها مدبرة، ثم سرت معهم حتى قدمت على أهلى.

قال أسلم: فلما قدم عمر بن الخطاب الشام أتاه ذلك الراهب فى خلافته، وهو صاحب دير العدس بذلك الكتاب، فلما قرأه عمر عرفه، فقال له الراهب: وف لى بشـرطى، فقال له عمر: جاء أمر غير ذلك، جاء ما ليس لعمر ولا لأبى عمر فيه شـىء، فاستشـار فيه عمر المسلمين، فقالوا: نرى أن تفى له يا أمير المؤمنين، قال عمر: هل عندك للمسلمين منفعة؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، قال: فأنشـأ عمر يحدثنا حديثه حتى أتى على آخره، ثم قال عمر للراهب: إن أضفتم المسـلمين، وأرشـدتموهم الطريق، وهديتم الضال، ومرضتم المرضى ممن يمر بكم من المسلمين فعلنا، قال: نعم يا أمير المؤمنين نفعل. قال: فوفى له عمر.

من كتاب (العقد الفريد) لابن عبد ربه الأندلسى.

□□□

ابن العاص وولاية مصر

روى عـن عبـد الله بن عمرو بن العاص، عن أبيه، قال: خرجت فى الجاهلية بتجارة إلى الشـام فنزلت فى بعض الطريق لقضاء حاجة، وتقدمتنى القافلة، فإنى لكذلك إذ أقبل إلى راهب على أتان له قد خرج فى بعض الزيارات يريد فلسطين وهو يذهب عطشا، وكان يوما صائفا، فسلم على واستسقانى ماء. ولم يكن معى غير فضلة فى إداوة معلقة على كفل الفرس، فآثرته بها، وتبين له ذلك، فشـكر لى فعلى، وشـكا تعبا لحقه، وأنه يريد النزول والراحة قليلا، وهو خائف من الوحدة وفساد الطريق، وكأنه أراد الأنس بى.

فقلت له: انزل فإنى أونسك ولا أتركك. وكنت عارفا بالطريق، فعرجنا إلى ظل شجرة أرز فعرسـنا تحتها، وقلت: أعينه، ثم ألحق القافلة بعد تعريسـها بساعة، وكان له غلام ورحـل قد تأخر عنه، فكان مع ذلك ينتظر. فلما نزلنا اسـتلقى على جنبه ونام، وركبت فرسـى أطلب بعض الحياض التى كنت أعرفها لأمـلأ إداوتى منها، فوجدت واحدا منها فمـلأت الإداوة، ورجعـت والراهب نائم بحاله، وإذا بثعبان عظيم يسـير إليه لينهشـه، فاخترطت سيفى ونزلت إليه فلحقته، وقد كاد ينقره فقتلته، وجلست أخفر الراهب إلى أن قام وقد استراح من تعبه، فعرضت عليه الماء فشربِ، ونظر إلى الثعبان فهاله أمره. فعرفته أنه قصده وأنى قتلته فشـكر، وقال: قد أحييتنى مرتين. ووجب حقك على. قد حبسـت نفسـك على، ونزلت معى حتى استرحت، وآنستنى من الوحدة ووحشة الطريق، وأنا مع ذلك فى غربة. ولا أدرى بماذا أكافئك.

ثم ركبنا وسـرنا فما لحقنا القافلة إلا مسـاء، وطلبت رحلـى وغلاما كان معى إلى أن وجدتـه، فأنزلت الراهب معى إلى أن أصبحنا، فجاءه غلامه ورحله، فقال لى: أين تريد؟ فعرفته أنى أريد دمشـق بتجارة معى، فسـألنى عنها فأخبرته، فقال لى: أى تريد؟ تدخل معـى إلى مصر فإن لى بها حالا جميلة وجاها عريضا، ولعلى أكافئك على ما أوليتنى، فإن يـدى تقصـر هاهنا عن مكافأتك، وعلى أن أربحك فى تجارتـك ضعف ما تأمله من الربح منها، فوقع كلامه بقلبى، فقلت له: على أن تخرج معى من يكفلنى ويحملنى فى طريقى، أو تضيفنى إلى من يبلغنى هذا المكان. فإنى إذا بلغته عرفت الطريق إلى موضعى. قال: بل أردك إليه من طريق هو أقرب من طريقك هذا.

فسرت معه فرأيت رجلا جميل الصحبة والمرافقة، وكان فيه مع ذلك فهم وعلم، وكان من أبناء القبط الأولين، وكان يخبرنى عن مصر وأهلها فى القديم، وعن عجائبها وطلسماتها وملوكها، وخبر بخت نصر وكيف دخل البلد وأخذه بالحيلة التى تمت له حتى وصل إليه وما كان بعد ذلك، ولم نزل فى أنس إلى أن دخلنا مصر، فلم نكن نمر بموضع ولا دير إلا تلقونا بالإكرام والجميل، وعدينا النيل، وسرنا حتى دخلنا الإسكندرية، فأنزلنى عنده وأتاه جماعة من أهله وذوى قرابته وجماعة من وجوه أهل البلد، وكان مقدما عندهم، فسلموا عليه وهنأوه بالسلامة وقضوا حوائجه وأكرموه وأتحفوه، ولم يكن يدخل إليه أحد من أهله وغيرهم إلا أخبرهم بخبرى، وأنى خلصته من العطش بما كان معى من الماء، وأنى آثرته على نفسى، وخبرهم بما كان من أمر الثعبان. فما منهم أحد إلا برنى وأكرمنى، واجتمعت لى دنانير كثيرة، ووجه أقاربه وباع منهم ومن غيرهم البضاعة التى كانت معى، وأفضلت فيها فضلا كثيرا، وأقمت أكثر من شهر وأنا أطوف بالإسكندرية، وأنظر إلى عجائبها ومنارها ثم استأذنته للخروج، فقال لى: إن لنا عيدا وقد حضر، فأقم عندى حتى تشاهده وأوجه معك من يخفرك إلى حدود أرض الحجاز، فأجبته إلى ذلك.

وحضر العمد، وزينت كنائس الإسكندرية، وخصوا منها كنيسة مرخمة عظيمة كانوا يجتمعون إليها بأحدث الزى، وكان خارج الكنيسة أسطوان كبير واسع مفروش بالبسط، وقد جلس عليه رؤساؤهم وبطارقتهم، وكان من عاداتهم أن يضربوا خارج الأسطوان فى فسيح هناك بصولجان وكرة تطير إلى ذلك الأسطوان، فمن وقعت فى حجره الكرة من أولئك البطارقة والرؤساء، حكم له بولاية مصر.

قال عمرو: فأجلسنى وسط أولئك الوجوه والبطارقة فإنى لمشغول بالنظر إليهم وإلى زيهم، وأولئك خارج الأسطوان يضربون تلك الكرة إذ طارت إلى فسقطت فى حجرى فأكبروا ذلك، وجعلوا يتأملونى ويعجبون منى، ومن سقوط الكرة فى حجرى، ثم ردوا الكرة إلى خارج، وضربوها أيضا مرة أخرى، فطارت حتى سقطت ثانية، فازدادوا عجبا، وجعل بعضهم ينظر إلى بعضٍ ويزمزمون بكلامهم، وأنا لا أعرف ما يقولون. ثم أخوجوا الكرة وضربوها مرة ثالثة فسقطت فى حجرى ودخلت فى كمى، فزاد تعجبهم وقالوا: إن هذا الأمر يراد أو بطل فعل الكرة.

وأقمت حتى انقضت أيام عيدهم، فسألته أن يأذن لى فى الخروج إلى الحجاز، فأذن لى فى ذلك، بعد أن شرط على أن لا أترك زيارته فى كل وقت يمكنى، وأنفذنى مع غلام له

وجهزنى بطريف من ثياب الوشى التى كانت تعمل بالإسكندرية، وثياب من دبيق دمياط. وأكسية رقيقة من صوف، وفصوص وغير ذلك. فانصرفت إلى أهل بوفر حال. وأخرجنى الغلام من ناحية أستغنى فيها عن الخفير. وكان الغلام الذى وجهه به معى يدرى أمرهم، فسألته عن أمرة الكرة فعرفنى أن من عاداتها ذلك اليوم. ألا يقع فى حجر أحد إلا ولى مصر، وأنهم عجبوا من ذلك. وقالوا: هذا رجل عربى وغريب. وكيف يلى هذا مصر؟! وصرفوا الأمر إلى فساد فعل الكرة.

قال عمرو: فوقع فى نفسى من ذلك أمر لم أعرف الوجه فيه. وسرت إلى منزلى وأنا أوفر التجار الذين خرجت معهم إلى الشام وأحسنهم حالا. وعرض فى نفسى شىء من أمر مصر، فقلت: أحمل تجارة إلى بلد الروم، وأدخل إلى الملك ولعله أن يقلدنى أمر مصر، ثم قلت: إن هذا النظر فاسد، وهل يترك الملك بطارقته وأصحابه ويولينى أنا وأنا عربى على غير دينه؟ فسمعت قائلا يقول: لابد لفلان من ذلك ويصير منه إلى ما يحب. فزاد ذلك فى قوة أملى فى الولاية على مصر إلى أن كان من أمر النبى صلى الله عليه وسلم ما كان، وجاءته هدية المقوقس، وقال: «إنكم ستفتحون مصر فاستوصوا بالقبط خيرا، وجازوا أهلها بالجميل، فإنهم خؤولة إبراهيم». فلما سمعت ذلك تحققت أنه سيكون لى يد على مصر.

من كتاب (بهجة المجالس وأنس المجالس) لابن عبد البر.

□□□

من عواقب اللين

حدثنى أبو العباس هبة الله بن محمد بن المنجم، عن أسلافه: إن المأمون نكب عاملا له، يقال له: عمرو بن نهيوى، صهر موسى بن أبى الفرج بن الضحاك، من أهل السواد، موسرا، فأمر محمد بن يزداد أن يتسلمه إليه ويعذبه ويعاقبه، حتى يأخذ خطه بعشرة آلاف ألف درهم، ويستخرجها منه.

فسلم عمرو إلى محمد، فأكرمه وألطفه، وأمر بخدمته وترفيهه، وأفرده فى حجرة سرية من داره، وأخدمه فيها من الفرش والغلمان بما يليق به، ولم يكلمه ثلاثة أيام، والمأمون يسأل عن الخبر، فيبلغه ترفيهه له، فيغتاظ ويسأله فيقول: هو مطالب.فلما كان فى اليوم الرابع، استدعى عمرو محمدا، فدخل إليه.

قال محمد بن يزداد: فقال لى: يا هذا، قد عرفت ما تقدم به إليك الخليفة فى أمرى، ووالله ما رأيت هذا المال، ولا نصفه، ولا ثلثه قط، ولا يحتوى عليه ملكى، ولعل الخليفة يريد دمى، وقد جعل هذا إليه طريقا، وقد تفضلت على لا يسعنى معه أن أدخر جهدا فى تجميلك عند صاحبك، وقد كتبت تذكرة بجميع ما يحتويه ملكى، ظاهرا وباطنا، وهى هذه، وسلمها إلى، وإذا هى تشتمل على ثلاثة آلاف ألف درهم، وعلى، وعلى، وحلف بالطلاق والعتاق، والإيمان المغلظة، ما تركت لنفسى بعد ذلك، إلا ما على من كسوة تستر عورتى، وهذا وسعى وجهدى، فإن رأيت أن تأخذه وتسأل الخليفة الرضا به منى، فإن فعل فقد خلصنى الله بك، ونجانى من القتل على يدك، وإن أبى فإنه يسلمنى إلى عدوى الفضل بن مروان، وهو القتل، ووالله لا أعطيت على هذا الوجه، درهما واحدا، ولا كنت ممن يجىء على الهوان دون الإكرام، وسأتلف[1] ولا يصل الخليفة إلى حبة من مالى، ولكن المنة لك على حاصلة، فإن عشت شكرتها، وإن مت فالله مجازيك عنى.

قال: فأخذت التذكرة، ورحت إلى المأمون.فقال: ما عملت فى أمر عمرو بن نهيوى؟ فقلت: إنه قد بذل ألفى ألف درهم، وليس عنده أكثر من ذلك.فاستشاط، وقال: لا، وكرامة له، ولا أربعة آلاف ألف، ولا ثمانية آلاف ألف.

وقال لى الفضل: ما دمت ترفهه، وتكرمه، وتجلسه على الدسوت، وتخدمه بنفسك وغلمانك، كيف لا يتقاعد؟ فقلت له: فتسلمه أنت إن شئت.فقال الخليفة: خذه إليك. فأخذه، وأرهقه، وطالبه بعشرة آلاف ألف، ودهقه وضربه، وهو لا ينحل بشىء. فنزل معه

(١) يعنى: سأموت.

إلى خمسة آلاف ألف، فلم يستجب. فقنع منه بثلاثة آلاف ألف، فلم يجب.

فلما زاد عليه المكروه، وخاف الفضل أن يتلف فى العذاب، فيجب المال عليه فى نفسه بإتلافه إياه، رفق به وداراه وخلع عليه، ورفهه أياما. وقال له: كان محمد بن يزداد بذل عنك ألفى ألف درهم، وقد قنعت بها منك، فهاتها. فقال: ما ملكتها قط، ولا بذلتها لمحمد.

فجاء الفضل إلى المأمون، فاقتص عليه خبره معه فى معاقبته ومطالبته أولا، بالكل، واقتصاره ثانيا، وترفيهه له وإكرامه وقناعته منه بألفى ألف درهم، وإقامته على أنه لا مال له، وإنكاره أن يكون بذل ذلك، وكنت حاضراً.فانقطع الحبل فى يد المأمون، وكاد يهم بالفضل.

فقلت: يا أمير المؤمنين الرجال لا يكالون، وليس كل أحد يجىء على الهُوان، وإن الفضل استخطأ رأيى فيما عاملت عمروا به، فصار إليه، وعامله بمثله حيث لم ينفع ذلك، ولو تركنى معه فى الأول، لاستخرجت منه ثلاثة آلاف ألف عفوا، وهذه تذكرة بخط عمرو تحتوى على ثلاثة آلاف ألف فأخرجها، وطرحتها بين يديه.

وقلت: لو كنت علمت أن أمير المؤمنين يجيبنى فى ذلك الوقت، إلى ثلاثة آلاف ألف، عنه، لبذلتها، فبذلت ألفى ألف، حتى إن لم يقنع، زدت ألف ألف، والآن فقد فسد هذا، ووالله لا أعطى عمرو، مع ما جرى عليه، حبة، فإن استحل أمير المؤمنين دمه، فذاك إليه، وإلا فليس إلى استخراج شىء منه سبيل.

قال: فاستحيا المأمون، وأطرق مفكرا مليا، ثم رفع رأسه، وقال: والله لا كان كاتب من كتابى، ولا نبطى من عمالى، أكرم، وأوفى، وأصح تدبيرا منى، قد وهبت لك يا محمد، عمروا وما عليه، فخذه واصنع به ما شئت. فتسلمته من الفضل بن مروان، وأطلقته، مكرما إلى بيته.

من كتاب (نشوار المحاضرة) للتنوخى.

□□□

الخلفاء وعجائب الأرقام !

قال الصولى: الناس يرون أن كل سادس يقوم بأمر الدين منذ أول الإسلام لابد أن يخلع. النبى صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلى، والحسن خلع ثم معاوية. ويزيد، ومروان، وعبد الملك، وعبد الله بن الزبير فخلع. ثم لم يكن فى الدولة الأموية من يكمل الستة فكان منهم يزيد بن الوليد ثم إبراهيم بن الوليد ثم مروان بن محمد وهو آخرهم.

ثم أتى الله بالدولة العباسية: فكان منهم السفاح، والمنصور، والمهدى، والهادى، والرشيد، والأمين فخلع. ثم المأمون، والمعتصم، والواثق، والمتوكل، والمنتصر والمستعين فخلع. ثم المعتز، والمهتدى، والمعتمد، والمعتضد، والمكتفى، والمقتدر فخلع فى فتنة ابن المعتز ثم رد.

قال صاحب (رأس مال النديم): ثم القائم، والراضى، والمقتفى، والمكتفى، والمطيع، ثم الطائع فخلع. قال الصلاح الصفدى: ثم القادر، والقائم، والمقتدى، والمستظهر، والمسترشد، والراشد فخلع. ثم المقتفى، والمستنجد، والمستضئ، والناصر، والظاهر، والمستعصم فخلع، وقتل أيام هولاكو ملك التتار.

خليفة جرت أموره كلها على ثمانية هو: المعتصم. لأنه الثامن من ولد العباس، والثامن من خلفاء بنى العباس، والثامن من أولاد الرشيد، وولد سنة ثمان وسبعين ومائة، ومات وعنده ثمان وأربعون سنة، وملك ثمان سنين وثمانية أشهر وثمانية أيام، وخلف ثمانية بنين وثمان بنات، وخلف ثمانية آلاف دينار وثمانية وعشرين ألف ألف درهم وثمانى عشر ألف دابة، وفتوحه ثمانية، وتوفى لثمان بقين من ربيع الأول.

امرأة زوجها خليفة وابنها خليفة وزوج ابنتها خليفة هى: فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم. زوجها أمير المؤمنين على بن أبى طالب، وابنها الحسن السبط، وزوج ابنتها أمير المؤمنين عمر بن الخطاب هو زوج أم كلثوم بنت على.

ثلاثة نسوة لا رابعة لهن ولدت كل واحدة منهن خليفتين وهن: ولاده بنت العباس العبسية زوجة عبد الملك بن مروان، ولدت له الوليد وسليمان كل منهما ولى الخلافة. وشاهريد بنت فيروز بن يزدجرد، زوجة الوليد بن عبد الملك، ولدت له يزيد وإبرهيم، كل منهما ولى الخلافة. والخيزران زوجة المهدى، ولدت له موسى الهادى وهارون الرشيد، ولى كل منهما الخلافة.

امــرأة لها اثنا عشــر محرما كل منهم خليفة هى: عاتكــة بنت يزيد بن معاوية: يزيد أبوهــا. معاوية جدهــا. معاوية بن يزيد أخوها. عبد الملك بن مــروان زوجها. مروان بن الحكم حموها. يزيد بن عبد الملك ابنها. الوليد وسليمان وهشام بنو زوجها. إبراهيم ويزيد ابنا الوليد ابنا ابن زوجها.

فاطمة بنت عبد الملك: أبوها عبد الملك. وجدها لأبيها مروان. وإخوتها الوليد وسليمان ويزيد وهشام أولاد عبد الملك. وبنو عمها الوليد بن يزيد ويزيد وإبراهيم ابنا الوليد. وزوجها عمــر بن عبد العزيز. وجدها لأبيها يزيد بن معاوية. وأبو جدها معاوية بن أبى ســفيان. وعمها معاوية بن يزيد بن معاوية.

من كتاب (مآثر الأناقة فى معالم الخلافة) للقلقشندي.

□□□

طرف من أخبار ابن عتيق

وكان ابـن أبى عتيق من نسـاك قريش وظرفائهم، بل كان قـد بذهم ظرفا. وله أخبار كثيرة. فمن طريف أخباره أنه سمع وهو بالمدينة قول ابن أبى ربيعة:

فما نلت منها محرما غير أننا كلانا من الثوب المطرفِ لابسُ

فقـال: أبنا يعلب ابـن أبى ربيعة! فأى محرم بقى! فركـب بغلته متوجها إلى مكة، فلمـا دخل أنصاب الحرم، قيل لـه: أحرم. قال: إن ذا الحاجة لا يحرم. فلقى ابن أبى ربيعـة فقال: أما زعمت أنـك لم تركب حراما قط! قال: بلى، قال: فما قولك: كلانا من الثـوب المطـرف لابس، فقال له: إذا أخـبرك! خرجت بعلةِ المسـجد، فصرنا إلى بعض الشـعابِ، فأخذتنا السماء، فأمرت بمطرفى فسترنا الغلمان به، لئلا يروا بها بلة فيقولوا: هلا اسـتترت بسقائف المسـجد! فقال لها ابن أبى عتيق: يا عاهر! هذا البيت يحتاج إلى حاضنة. وهو الذى سمع قول عمر بن أبى ربيعة:

مـن رسولـى إلـى الثريا بأنى ضقت ذرعا بهجرها والكتابِ!

فلبس ثيابه وركب بغلته وأتى باب الثريا، فاسـتأذن عليها، فقالت: والله ما كنت لنا زوارا، فقال: أجل، ولكنى جئت برسـالة، يقول لك ابن عمك عمر بن أبى ربيعة: ضقت ذرعـا بهجـرك والكتاب. فلامه عمر، فقال له ابن أبـى عتيق: إنما رأيتك متلددا تلتمس رسولا، فخففت فى حاجتك. فإنما كان ثوابى أن أشكر.

ومن طريف أخباره أن عائشة بنت طلحة عتبت على مصعب بن الزبير فهجرته، فقال مصعب: هذه عشـرة آلاف درهم لمن احتـال لى أن تكلمنى. فقال له ابن أبى عتيق: عدل المال، ثم صار إلى عائشـة، فجعل يستعتبها لمصعب، فقالت والله ما عزمى أن أكلمه أبدا. فلما رأى جدها قال لها. يا بنت عم. إنه قد ضمن لى إن كلمته عشرةَ آلاف درهم، فكلميه حتى آخذها، ثم عودى إلى ما عودك الله.

ومن أخباره أن مروان بن الحكم قال يوما: إنى لشغوف ببغلة الحسن بن على رحمهما الله، فقال له ابن أبى عتيق: إن دفعتها إليك، أتقضى لى ثلاثين حاجةً؟ قال: نعم. قال: إذا اجتمع الناس عندك العشـية فإنى آخذ فى مآثر قريش، ثم أمسـك عن الحسن، فلمنى على ذلك. فلما أخذ الناس مجالسهم أخذ فى مآثر قريش، فقال له مروان: ألا تذكر أولية أبـى محمـد، وله فى هذه ما ليس لأحد؟ فقال: إنما كنا فى ذكر الأشـراف، ولو كنا فى

ذكر الأنبياء لقدمنا ما لأبى محمد! فلما خرج الحسن ليركب تبعه ابن أبى عتيق، فقال له الحسن - وتبسم - : ألك حاجة؟ فقال: ذكرت البغلة، فنزل الحسن ودفعها إليه.

ومن طريف أخباره أن عثمان بن حيان المرى لما دخل المدينة واليا عليها اجتمع الأشراف عليه من قريش والأنصار، فقالوا له: إنك لا تعمل عملا أجدى ولا أولى من تحريم الغناء والرثاء، ففعل، وأجلهم ثلاثا، فقدم ابن أبى عتيق فى الليلة الثالثة، فحط رحله بباب سلامة الزرقاء، وقال لها: بدأت بك قبل أن أصير إلى منزلى، فقالت: أو ما تدرى ما حدث؟ وأخبرته الخبر، فقال: أقيمى إلى السحر حتى ألقاه، فقالت: إنا نخاف ألا تغنى شيئا ونكظ، فقال: إنه لا بأس عليك، ثم مضى إلى عثمان فاستأذن عليه، فأخبره أن أحب ما أقدمه عليه حب التسليم عليه، وقال له: إن من أفضل ما عملت به تحريم الغناء والرثاء، قال: إن أهلك أشاروا على بذلك، قال: فإنك قد وفقت، ولكنى رسول امرأة إليك تقول: قد كانت هذه صناعتى فتبت إلى الله منها، وأنا أسألك أيها الأمير ألا تحول بينها وبين مجاورة قبر النبى صلى الله عليه وسلم.

فقال عثمان: إذن أدعها لك، قال: إذن لا يدعها الناس، ولكن تدعو بها فتنظر إليها، فإن كانت ممن يترك تركتها، قال: فادع بها، قال: فأمرها ابن أبى عتيق فتقشفت، وأخذت سبحة فى يدها، وصارت إليه، وحدثته عن مآثر آبائه، ففكهَ لها؟ فقال لها ابن أبى عتيق: اقرئى للأمير، ففعلت، فأعجب بذاك، فقال لها: فاحدى للأمير، فحركه حداؤها، ثم قال لها: غيرى للأمير، فجعل يعجب بذلك عثمان، فقال له ابن أبى عتيق: فكيف لو سمعتها فى صناعتها! فقال: قل لها فلتقل، فأمرها فتغنت:

سددن خصاص الخيم لما دخلنه بكل لبانٍ واضحٍ وجبين

فنزل عثمان بن حيان عن سريره حتى جلس بين يديها، ثم قال: لا والله، ما مثلك يخرج عن المدينة! فقال له ابن ابى عتيق: إذن يقول الناس أذنَ لسلامةَ فى المقام ومنع غيرها! فقال له عثمان: قد أذنتُ لهم جيمعا.

من كتاب (الكامل) للمبرد.

□□□

أوائل أمير المؤمنين عمر

أول خليفة سمى بأمير المؤمنين عمر بن الخطاب، وهو أول من فتح الفتوح وأول من مصر الأمصار، وهو أول من دون الدواوين فى الإسلام. قال القضاعى: دونها فى سنة تسع عشرة وقيل سنة عشرين. قال الماوردى: واختلف فى سبب وضعه، قيل إن أبا هريرة رضى الله عنه قدم عليه بمال من البحرين فقال: ماذا جئت به؟ قال: خمسمائة ألف درهم: فاستكثره عمر وقال: أتدرى ما تقول؟ قال: نعم، مائة ألف خمس مرات، فصد عمر المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أيها الناس قد جاء مال كثير، فإن شئتم كلنا لكم كيلا، وإن شئتم عددنا لكم عدا، فقال رجل: يا أمير المؤمنين قد رأيت الأعاجم يدونون ديوانا لهم، فدون لنا أنت ديوانا، فأمر بوضع الدواوين، وقيل: بل بعث عمر رضى الله عنه بعثا وعنده الهرمزان، فقال لعمر: قد أعطيت أهل هذا البعث الأموال، فإن تخلف منهم رجل أخل بمكانه من أين يعلم صاحبه، فأثبت لهم ديوانا، فسأله عن الديوان ففسره له، فأمر بوضع الديوان.

وقيل أن عمر استشار المسلمين فى أمر المال فقال على: تقسم كل سنة ما اجتمع إليك من المال ولا تمسك منه شيئاً، فقال عثمان: أرى مالا كثيرا، وإن لم تخص الناس حتى تعلم من أخذ ممن لم يأخذ انتشر الأمر، فقال خالد بن الوليد: قد كنت بالشام فرأيت ملوكها دونوا ديوانا وجندوا جنودا فدون ديوانا وجند جندا، فأخذ بقوله.

وهو أول من أرخ بعام الهجرة، قال فى (ذخيرة الكتاب): لما أراد وضع التاريخ جمع الناس للمشورة، فقال بعضهم: نؤرخ بمبعث النبى صلى الله عليه وسلم، وقال بعضهم: بل بوفاته، وقال بعضهم: بل بهجرته من مكة إلى المدينة لأنها أول ظهور الإسلام، فصوبه عمر وأجمع رأيهم عليه، وكانت الهجرة فى شهر ربيع الأول بعد عشر من النبوة، وقدم المدينة لاثنى عشرة ليلة خلت منه، فاختلفوا فى الشهر الذى يبدأون به، فأشار بعضهم بالبداءة برمضان لشرفه، فقال عمر: بل بالمحرم، لأنه منصرف الناس من حجهم، فرجع القهقرى ثمانية وستين يوما، وهى القدر الذى مضى من أول المحرم إلى اثنتى عشرة ليلة من ربيع الأول، وابتداء التاريخ من أول المحرم لتلك السنة. قال أبو هلال العسكرى: أراد بذلك اجتماع الأشهر الحرم فى سنة واحدة.

وهو أول من اتخذ بيت مال، فيما ذكره العسكرى عن قتادة، وهو أول من سن قيام شهر

رمضان وجمع الناس على إمام واحد فى التراويح، وذلك سنة أربع عشرة، وهو أول من عس بالليل، وهو أول من عاقب شاعرا على الهجاء، عاقب الحطيئة حين هجا الزبرقان بن بدر، بأن حبسه فى بئر ثم أخرجه وطلب شفرة يوهمه أنه يريد قطع لسانه تخويفا له ليكف عن الهجاء. وهو أول من ضرب فى الخمر ثمانين (جلدة)، وكان أبو بكر رضى الله عنه قبل ذلك يجلد فيه أربعين.

وهو أول من حرم المتعة بالنساء، وهى أن تنكح المرأة على شىء إلى أجل، وكانت مباحة مثل ذلك. وهو أول من نهى عن بيع أمهات الأولاد وهبتهن وجعلهن ميراثا. وهو أول من مسح سواد العرق على يد عثمان بن حنيف، وهو من أرض الموصل إلى عبادان طولا، وذلك مائة وخمسة وعشرون فرسخا، ومن عقبة حلوان إلى القادسية عرضا، وذلك ثمانون فرسخا، وبلغت جرباته ستة وثلاثين ألف جريب.

وهو أول من صالح العمال على مال يأخذه منهم، وكان ذلك أنه شاطر عمرو بن العاص ماله وهو أمير مصر يومئذ. وهو أول من حمل الطعام من مصر فى بحر أيلة إلى المدينة حين أقحطوا فى عام الرمادة، والأمير على مصر يومئذ عمرو بن العاص، قال القضاعي: حفر خليج القاهرة من الفسطاط إلى السويس فى ثمانية أشهر، وجرت فيه السفن بالطعام من عامه فكان ينقل منها إلى السفن ببحر القلزم فيحمل منها إلى المدينة. وهو أول من أعال الفرائض، فيما ذكره العسكرى عن ابن عباس، وكان ابن عباس ينكر القول، ولم يظهر ذلك إلا بعد موت عمر، فقيل له: هلا قلت ذلك فى زمن عمر؟ قال: كان رجلا مهيبا فهبته. وهو أول من اتخذ الدرة وحملها ليعذب بها الجناة، وكانت من الهيبة بحيث قال الشعبى: إن درة عمر لأهيب من سيف الحجاج.

من كتاب (مآثر الأناقة فى معالم الخلافة) للقلقشندى.

□□□

تيمورلنك وخراب أصفهان

فلما وصل إلى أصفهان، وكانت من أكبر البلدان مملوءة بالأفاضل ومحشوة بالأماثل، وبها شخص من علماء الإسلام، والسادة الأعلام، قد بلغ فى العلم الغاية، وفى العمل والاجتهاد النهاية، أفعاله مبرورة، وكراماته مشهورة، ومآثره مذكورة، ومحاسنه على جبهة الأيام مسطورة، وهو معتقد المسلمين، وكان اسمه إمام الدين، وكان أهل أصبهان يذكرون له تيمور، ويحذرون من شره أى محذور، فيقول لهم ما دمت فيكم حيا، لا يضركم كيده شيا، فإن وافانى الأجل، فكونوا من أذاه على وجل، اتفق أنه فى وصول تيمور، توفى الشيخ المذكور، فأصبحت أصفهان ظلمات بعضها فوق بعض بعد أن كانت نورا على نور، فتضاعفت حسرتهم، وترادفت كسرتهم، فوقعوا فى الحيرة، وصاروا كأبى هريرة رضى الله عنه حيث يقول:

للناس هم ولى فى اليوم همان فقد الجراب وقتل الشيخ عثمان

فخرجوا إليه وصالحوه على جمل من الأموال، فأرسل فيهم لاستخلاصها الرجال، فوزعوها على الجهات، وفرضوها على الحارات والمحلات، وتفرق فيهم المستخلصون، فكانوا يعيثون فيهم ويعبثون، واستطالوا عليهم فجعلوهم كالخدم، وتوصلوا إلى أن مدوا أيديهم إلى الحرم، فانتكوا منهم أى نكاية، فرفع أهل أصفهان إلى رئيسهم الشكاية، وكثرت منهم الشكية، وهم قوم لهم حمية، وقالوا الموت على هذه الحالة، خير من الحياة مع هذه الاستطالة، فقال لهم رئيسهم إذا أقبل المساء، فإنى أضرب الطبل لكن لا تحت كساء، فإذا سمعتم الطبل قد دق، فالقول قد حق، فليقبض كل منكم على نزيله وليحتكم فيه بسمين رأيه وهزيله، فاتفقوا على هذا الرأى المعكوس والأمر المنكوس فى الطالع المنحوس، وقصروا مدى أنظارهم السقيمة، عن قصارى هذه الأمور الوخيمة، ولما تعرى العنان من ثوب نوره، وأبدل الجو قمامه بسموره، ومضى هزيع من الليل، ضرب الرئيس الطبل فحل بالمستخلصين الويل، فقتلوهم وكانوا نحوا من ستة آلاف، وأصبحوا، وقد غرسوا فى دوح العصيان أغصان الخلاف، فأثمر ذلك لهم الحور بعد الكور وبان لهم البوار فأصبحوا بورا بهذا البور.

ولما سل الفجر حسامه، وحسر النهار لثامه، بلغ تيمور ذلك الصنع المشئوم فنفخ الشيطان منه فى الخيشوم، فارتحل من فوره واستل عضب غضبه ونثل جعبة جوره،

وتوجه نحو المدينة مزمجرا متكالبا مستأسدا متنمرا، فوصل إليها، وأخنى عليها، وأمر بالدماء أن تسفك، وبالحرمات أن تهتك، وبالأرواح أن تسلب، وبالأموال أن تنهب، وبالعمارات أن تخرب، وبالزروع أن تحرق، وبالضروع أن تخرق، وبالأطفال أن تطرح، وبالأجساد أن تجرح، وبالأعراض أن تثلم، وبالذمم أن تسلم ولا تسلم، وأن يطوى بساط الرحمة، وينشر مسح النقمة، فلا يرحم كبير لكبره، ولا صغير لصغره، ولا يوقر عالم لعلمه، ولا ذو أدب لفضله وحلمه، ولا شريف لنسبه ولا منيف لحسبه، ولا غريب لغربته، ولا قريب لقرابته وقربته، ولا مسلم لإسلامه، ولا ذمى لذمامه، ولا ضعيف لضعفه، ولا جاهل لركاكة رأيه وسخفه وبالجملة فلا يبقى على أحد، ممن هو داخل البلدة فأما أهل المدينة فعلموا أنه ليس للجدال مجال، فضلا عن ضراب وقتال وأن قبول الاعتذار محال وأنه ليس ينجيهم من ريب المنون مال ولا بنون ولا يقبل منهم فى تلك الساعة عدل ولا تنفعهم شفاعة فتحصنوا بحصون الإصطبار، وتدرعوا دروع الاعتبار، وتلقوا سهام القضاء من حنايا المنايا-بمجن تسليم المراد، واستقبلوا ضربات القدر من سيوف الحتوف بأعناق التفويض والانقياد، فأطلق فى ميادين رقابهم عنان الحسام البتار، وجعل مقابرهم بطون الذئاب والضباع وحواصل الأطيار، ولا زالت عواصف الفناء تحتهم من أشجار الوجود حتا، حصروا عدد القتلى فكانوا نحو ست مرات من أمة يونس بن متى (أى ستمائة ألف)، فاستغاث بعض البصراء، بواحد من رؤوس الأمراء، وقال البقية فى البقية، والرعاية فى الرعية، فقال ذلك الأمير للسائل الفقير اجمعوا بعض الأطفال عند بعض القلل. فلعل أن نلين منه عند رؤيتهم شيئا ما عسى ولعل، فامتثلوا ما به أمر، ووضعوا شرذمة من الأطفال منه على الممر.

ثم ركب ذلك الأمير مع تيمور، وأخذ به على تلك الأطفال ومر، ثم قال له انظر يا مخدوم نظر الرأفة إلى المرحوم، فقال: ما هؤلاء الطرحى الأشقياء؟ فقال أطفال معصومون، وأمة مرحومون محرومون، استحر القتل بوالديهم، وحل غضب مولانا الأمير على أكابرهم وذويهم، وهؤلاء يسترحمونك بعواطفك الملوكية وصغرهم، ويستشفعون إليك بذلهم وضعفهم ويتمهم وفقرهم وكسرهم، أن ترحم ذلهم، وتبقى على من بقى لهم، فلم يحر جوابا ولا أبدى خطابا، ثم مال بعنان فرسه عليهم، ولم يظهر أنه بصر بهم أو نظر إليهم، ومالت معه تلك الجنود والعساكر، حتى أتى منهم على الأول والآخر، فجعلهم طعمة للسنابك، ودقة تحت أقدام أولئك ثم جمع الأموال، وأوثق الأحمال، ومال راجعا إلى سمرقند بما قد نال

وكم بين هذه الأمور والقضايا، من دواه وبلايا، وأخبار وحكايات وتجهيز ســرايا، وتولية وعــزل، وإبراز هزل فــى صورة جد وجد فى صورة هزل، وبنــاء وهد، وصد ورد، وتعمير غامــر، وتخريب عامر، وتهان وتعاز وانحراف وتواز ومباحثات مع علماء، ومناظرات مع كبراء، ورفع وضعاء ووضع شــرفاء، وتمهيد قواعــد، وتقريب أباعد، وتبعيد أدان، وبروز مراسيم إلى كل قاص ودان، إلى غير ذلك مما لا يكاد يحصر، ولا يضبط بديوان ولا دفتر.

من كتاب (عجائب المقدور فى أخبار تيمور) لابن عرب شاه

□□□

obeikandl.com

ثورة القاهرة الأولى [1]

عمل (الفرنسيون) لهم (للمشايخ) ديوانا، وكتبوا لهم كيفية قسمة المواريث وفروض القسمة الشرعية وحصص الورثة. والآيات (القرآنية) المتعلقة بذلك. فاستحسنوا ذلك، وأحضروا(عقدوا) الديوان وأحضروا قائمة مقررات الأملاك والعقار. فجعلوا على الأعلى (الأكبر) ثمانية فرانسه (فرانك فرنسى) والأوسط ستة والأدنى ثلاثة. وما كان أجرته أقل من ريال فى الشهر فهو معافى[2].

وأما الوكائل (الوكالات) والخانات والحمامات والمعاصر والسيارج (جمع سرج) والحوانيت. فمنها ما جعلوا عليه ثلاثين وأربعين بحسب الخسة (الفقر) والرواج والإتساع (الغنى)، وكتبوا بذلك مناشير (منشورات) على عادتهم. وعينوا المهندسين ومعهم أشخاص لتمييز الأعلى من الأدنى[3]، وشرعوا فى الضبط والإحصاء. وطافوا ببعض الجهات لتحرير القوائم وضبط أسماء أربابها. ولما أشيع ذلك فى الناس كثر لغطهم واستعظموا ذلك. والبعض استسلم للقضاء، فانتبذ جماعة من العامة وتناجوا فى ذلك، ووافقهم على ذلك بعض المتعممين (المشايخ)، الذى لم ينظر فى عواقب الأمور ولم يتفكر أنه فى القبضة مأسور، فتجمع الكثير من الغوغاء من غير رئيس يسوسهم ولا قائد يقودهم، وأصبحوا متحزبين وعلى الجهاد عازمين، وأبرزوا ما كانوا أخفوه من السلاح وآلات الحرب والكفاح. وحضر السيد بدر وصحبته حشرات الحسينية[4] وزعر (أوباش) الحارات البرانية. ولهم صياح عظيم وهول جسيم، ويقولون بصياح فى الكلام: نصر الله دين الإسلام.

وذهبوا إلى بيت قاضى العسكر وتجمعوا، وتبعهم ممن على شاكلتهم نحو الألف

---

(١) قامت ثورة القاهرة الأولى ضد الإحتلال الفرنسى لمصر فى أكتوبر ١٧٩٨م، بعد الضرائب الفادحة التى فرضها قائد الحملة الفرنسية نابليون بونابرت على التجار ومصادرة الأموال وهدم أبواب الحارات. فضلا عن أخبار الفظائع التى ارتكبها الفرنسيون فى مختلف المديريات، لكن نابليون استطاع دحر الثورة بعنف وشراسة بعد أن قتل آلاف المصريين، وفى النهاية خرجت الحملة الفرنسية من مصر بعد احتلال دام لثلاث سنوات (١٧٩٨ – ١٨٠١م).

(٢) يذكر الجبرتى هنا تفاصيل عن السبب الأول الذى أدى إلى اندلاع هذه الثورة وهو فرض الضرائب.

(٣) أى تحديد مستويات العقارات.

(٤) الحسينية حى شعبى بالقاهرة، سمى بهذا الإسم نسبة لساكنيه الأوائل من العسكر الفاطمي، أصبح الحسينية من أوائل الأحياء التى عمرت خارج أسوار القاهرة الفاطمية فى العصر المملوكى فأصبح عامرا بالبيوت والأسواق، تحدث عنه المقريزى (١٣٦٤ – ١٤٤١م) أنه كان يمتد من باب الفتوح لقرية الخندق (حى الدمرداش) ومن باب النصر للريدانية، وأصبحت الحسينية نواة لأحياء أخرى فى القاهرة مثل حى الظاهر.

وأكثـر، فخاف القاضى العاقبة وأغلق أبوابه وأوقـف حجابه، فرموه بالحجارة والطوب، وطلـب الهـرب فلم يمكنه الهروب، وكذلك اجتمع بالأزهر العالم الأكبر، وفى ذلك الوقت حضر ديوى[1]، فبادروا إليه وضربوه وثخنوا جراحاته، وقتل الكثير من فرسـانه وأبطاله وشـجعانه، فعند ذلك أخذ المسـلمون حذرهم وخرجوا يهرعون، ومن كل حدب ينسلون، ومسـكوا الأطراف الدائـرة بمعظم أخطاط القاهرة، كباب الفتوح وبـاب النصر والبرقية إلى باب زويلة وباب الشـعرية وجهة البندقانيين (البنادقة) وما جازاها، ولم يتعدوا إلى جهة سـواها، وهدموا مسـاطب الحوانيت[2] وجعلوا أحجارها متاريس للكرنكة، لتعوق هجوم العـدو فـى وقت المعركة، ووقـف دون كل متراس جمع عظيم من النـاس، وأما الجهات البرانيـة والنواحـى الفوقانية[3] فلـم يفزع منهم فازع ولم يتحرك منهم أحد ولم يسـارع، وكذلك شـذ عن الوفـاق (الإتفاق) مصر العتيقة وبولاق، وعذرهم الأكبر قربهم من مسـاكن العسـكر. ولم تزل طائفة المحاربين فى الأزقة متترسـين، فوصل جماعة من الفرنساويين وظهـروا من ناحية المناخلي، وبندقوا (أطلقوا البنادق) على متراس الشـوانين وبه جماعة من مغاربة الفحامين فقاتلوهم حتى أجلوهم، وعن المناخلية أزالوهم، وعند ذلك زاد الحال وكثـر الرجف والزلزال، وخرجت العامة عن الحـد، وبالغوا فى القضية بالعكس والطرد، وامتـدت أيديهم إلى النهب والخطف والسـلب على التمام، فهجمـوا على حارة الجوانية ونهبوا دور النصارى الشـوام والأروام وما جاورهم من بيوت المسـلمين على التمام، وأخذوا الودائع والأمانات، وسـبوا (من السبي) النسـاء والبنات، وكذلك نهبوا خان الملايات وما به من الأمتعة والموجودات، وأكثروا من المعايب ولم يفكروا فى العواقب، وباتوا تلك الليلة سهرانين وعلى هذا الحال مستمرين.

وأمـا الإفرنج فإنهم أصبحوا مسـتعدين وعلى تلال البريقة والقلعـة واقفين، وأحضروا جميع الآلات من المدافع والقنابر (القنابل) والبنبات (المقذوفات) ووقفوا مستحضرين ولأمر كبيرهم منتظرين، وكان كبير الفرنسـيين (بونابرت) أرسـل إلى المشايخ مراسلة فلم يجيبوه عنهـا، ومـل من المطاولة (المماطلة)، هـذا والرمى متابع من الجهتـين، وتضاعف الحال ضعفـين، حتى مضى وقت العصر وزاد القهر والحصر، فعند ذلك ضربوا بالمدافع والبنبات

(١) قائد فرنسى.

(٢) كانت المحلات فى ذلك الوقت تتقدمها مسطبة، يجلس عليها صاحب المحل أو يستضيف عليها زبائنه وضيوفه.

(٣) المقصود هنا الأماكن غير المذكورة آنفاً.

على البيوت والحارات، وتعمدوا بالخصوص الجامع الأزهر ، وجرروا عليه المدافع والقنبر، وكذلك ما جاوره من أماكن المحاربين، كسوق الغورية والفحامين، فلما سقط عليهم ذلك ورأوه ولم يكونوا فى عمرهم عاينوه، نادوا يا سلام من هذه الآلام، يا خفى الألطاف نجنا مما نخاف. وهربوا من كل الأسواق ودخلوا فى الشقوق، وتتابع الرمى من القلعة والكيمان، حتى تزعزعت الأركان، وهدمت فى مرورها حيطان الدور وسقطت بعض القصور ونزلت فى البيوت والوكائل وأصمت الآذان بصوتها الهائل، فلما عظم الخطب، وزال الحال والخطب، ركب المشايخ إلى كبير الفرنسيس ليرفع عنهم هذا النازل، ويمنع عسكره من الرمى المتراسل، ويكفهم كما انكف المسلمون عن القتال، والحرب خدعة وسجال.

فلما ذهبوا إليه واجتمعوا عليه، عاتبهم فى التأخير واتهمهم فى التقصير، فاعتذروا إليه فقبل عذرهم وأمر برفع الرمى عنهم، وقاموا من عنده وهم ينادون بالأمان فى المسالك، وتسامع الناس بذلك، فردت فيهم الحرارة وتسابقوا لبعض بالبشارة، واطمأنت منهم القلوب. وأما أهل الحسينية والعطوف البرانية فإنهم لم يزالوا مستمرين وعلى الرمى والقتال ملازمين، لكنهم خانهم المقصود وفرغ منهم البارود، والإفرنج أثخنوهم بالرمى المتتابع بالقنابر والمدافع، إلى أن فرغت من عندهم الأدوات، فعجزوا وانصرفوا، وكف عنهم القوم ودخل الإفرنج المدينة، ومروا لا يجدون لهم مانع، ومشوا إلى الغورية وعلموا باليقين أن لا دافع لهم ولا كمين. ثم دخلوا الجامع الأزهر وهم راكبون الخيول، وانتهكت حرمة تلك البقعة بعد أن كانت أشرف البقاع، والفرنساوية لا يمرون بها إلا فى النادر، ويحترمونها عن غيرها فى الباطن والظاهر. فركب المشايخ أجمع وذهبوا لبيت صارى عسكر (نابليون)، وقابلوه وخاطبوه فى العفو ولاطفوه، والتمسوا منه أمانا كافيا، وترجوا عنده فى إخراج العسكر من الجامع الأزهر فأجابهم لذلك السؤال وأمر بإخراجهم فى الحال.

من كتاب (عجائب الآثار فى التراجم والأخبار) للجبرتي.

أديب الأندلس وإمامها

حدث الوزير الأندلسي أبو بكر محمد بن الوزير أبى مروان عبد الملك بن زهير، قال: بينما أنا قاعد فى دهليز دارنا وعندى رجل ناسخ أمرته أن يكتب لى (كتاب الأغانى) لأبى فرج الأصفهانى، إذ جاء الناسخ بالكراريس التى كتبها فقلت له : أين الأصل الذى كتبت منه لأقابل (لأراجع) معك به؟ قال: ما أتيت به معى.

فبينما أنا معه فى ذلك إذ دخل الدهليز رجل بذ الهيئة (رث الثياب)، عليه ثياب غليظة أكثرها صوف، وعلى رأسه عمامة قد لاثها من غير إتقان لها، فحسبته لما رأيته من بعض أهل البادية، فسلم وقعد وقال لى: يا بنى استأذن لى على الوزير أبى مروان. فقلت له: هو نائم، هذا بعد أن تكلفت جوابه غاية التكلف، حملنى على ذلك نزوة الصبا وما رأيت من خشونة هيئة الرجل. ثم سكت عنى وقال: ما هذا الكتاب الذى بأيديكما؟ قلت له: ما سؤالك عنه؟ فقال: أحب أن أعرف اسمه، فإنى كنت أعرف أسماء الكتب، فقلت هو كتاب الأغانى، فقال: إلى أين بلغ الكاتب منه؟ قلت: بلغ موضع كذا، وجعلت أتحدث معه على طريق السخرية به، فقال: وما لكاتبك لا يكتب؟ قلت: طلبت منه الأصل الذى يكتب منه لأعارض به هذه الأوراق، فقال لم أجئ به معى.

قال: يا بنى خذ كراريسك وعارض، قلت بماذا وأين الأصل؟ قال: كنت أحفظ هذا الكتاب فى مدة صباى، فتبسمت من قوله، فلما رأى تبسمى قال: يا بنى أمسك على (تابع معى) فأمسكت عليه وجعل يقرأ، فوالله ما أخطأ واوا ولا فاء، قرأ هكذا نحوا من كراستين، ثم أخذت له فى وسط السفر وآخره، فرأيت حفظه فى ذلك كله سواء، فاشتد عجبى، وقمت مسرعا حتى دخلت على أبى فأخبرته بالخبر، ووصفت له الرجل، فقام كما هو من فوره وكان ملتفا برداء ليس عليه قميص، وخرج حاسر الرأس (مكشوف الرأس)، حافى القدمين، لا يرفق على نفسه وأنا بين يديه وهو يوسعنى لوما حتى ترامى على الرجل وعانقه وجعل يقبل رأسه ويديه ويقول: يا مولاى اعذرنى، فوالله ما أعلمنى هذا الجلف إلا الساعة، وجعل يسبنى، والرجل يخفض عليه ويقول: ما عرفنى، وأبى يقول: هبه ما عرفك، فما عذره فى حسن الأدب؟ ثم أدخله الدار وأكرم مجلسه وخلا به فتحدثا طويلا، ثم خرج الرجل وأبى بين يديه حافيا حتى بلغ الباب وأمر بدابته التى يركبها فأسرجت،

وحلف عليه ليركبنها ثم لا ترجع إليه أبدا.

فلما انفصل قلت لأبى: من هذا الرجل الذى عظمته هذا التعظيم؟ قال لى: اسكت ويحك هذا أديب الأندلس وإمامها وسيدها فى علم الآداب. هذا ابن عبدون (من غرناطة توفى ١١٣٤م)، أيسر محفوظاته كتاب الأغانى.

من كتاب (المعجب فى تلخيص أخبار المغرب) لعبد الواحد المراكشى.

❑❑❑

obeikandl.com

من أخبار المتنبى

قال أبو على الحاتمى[1]: لما ورد أبو الطيب المتنبى[2] بغداد منصرفا عن مصر، التحف رداء الكبر، فكان لا يلاقى أحدا إلا أعرض عنه تيها، وزخرف القول عليه تمويها، يخيل إليه أن العلم مقصور عليه، وأن الشعر بحر لم يرد نمير مائه غيره، فثقلت وطأته على أهل الأدب ببغداد، وطأطأ كثير منهم رأسه وخفض جناحه، وتخيل الوزير المهلبى - رجما بالغيب - أن أحدا لا يستطيع مساجلته ومجاراته، وللرؤساء مذاهب فى تعظيم من يعظمونه. وساء معز الدولة أحمد بن بويه أن يرد حضرته - وهى دار الخلافة وبيضة الملك - رجل صدر عن حضرة عدوه سيف الدولة[3]. فلا يلقى أحدا بمملكته يساويه فى صناعته.

ولم يكن هناك ميزة يتميز بها أبو الطيب إلا الشعر، فتعقبت آثاره وتتبعت عيوبه، متحينا أن تجمعنا دار فأجرى أنا وهو فى مضمار يعرف فيه السابق من المسبوق، حتى إذا لم أجد ذلك قصدت موضعه، فوافق مصيرى إليه حضور جماعة تقرأ شيئا من شعره عليه، فحين أوذن بحضوري، واستؤذن عليه لدخولي، نهض عن مجلسه مسرعا ووارى شخصه عنى مستخفيا، وإنما قصد بنهوضه ألا ينهض لى عند موافاتى.

ودخلت فأعظمت الجماعة قدرى، وأجلستنى فى مجلسه، وإذا تحته أخلاق عباءة قد ألحت عليها الحوادث فهى رسوم داثرة، وأسلاك متناثرة. حتى إذا خرج إلى نهضت فوفيته حق السلام، غير ضنين له فى القيام، وإذا به لابس سبعة أقبية، كل قباء منها

---

(١) هو إمام اللغة والأدب فى القرن الرابع الهجري، أبو على محمد بن الحسين بن المظفر البغدادى الكاتب، له كتاب (الرسالة الموضحة)، وفيه ما جرى بينه وبين المتنبى من إظهار سرقاته وعيوب شعره وحمقه وتيهه، توفى عام ٣٨٨هـ / ٩٩٨م..

(٢) هو أبو الطيب أحمد بن الحسين بن الحسن بن عبد الصمد، أحد أعظم شعراء العرب، ولد بالكوفة عام ٣٠٣هـ، عاش معظم حياته وأكثرها عطاءً فى بلاد سيف الدولة الحمدانى فى حلب، لكن بعد حوالى عشر سنوات فى حلب جفاه الأمير، فغادر المتنبى من الشام إلى مصر حيث (كافور الإخشيدي)، لكنه لم يستطع أن ينال الحظة لديه فهجاه بشدة وغادر مصر قاصدا أمراء الشام والعراق وفارس، وبعد عودته إلى الكوفة زار ابن العميد ومدحه ومدح عضد الدولة بن بويه فى شيراز. كان شعر المتنبى أقوى تسجيل وأوضح تصوير للحياة فى القرن الرابع الهجري، اشتهر بالحكمة والمعانى المبتكرة، يعده النقاد من أعظم ناظمى الشعر بالعربية، توفى عام ٣٥٤هـ / ٩٦٥م..

(٣) هو على بن عبد الله بن حمدان الحمدانى التغلبى (٣٣٣هـ - ٩٤٥م/ ٣٥٦ هـ / ٩٦٧م)، حاكم الدولة الحمدانية المستقلة عن الخلافة العباسية فى حلب بالشام، وسيف الدولة هو لقبه الذى لقبه به الخليفة العباسي، ازدهرت الدولة فى عهده، اشتهر بمقارعة الدولة البيزنطية على حدود سوريا الشمالية وكانت الحرب بينه وبينهم سجالا، كان راعيا للفنون والعلماء وتزاحم على بابه فى حلب الشعراء والعلماء والأدباء والمفكرين، ومنهم المتنبى وابن خالويه والفارابى وأبو فراس الحمدانى.

لـون، وكان الوقت آخر الصيف، وأخلقها بتخفيف اللبس. فجلست مستوفزاً، وجلس متحفزا وأعرض عنى لاهيا، وأعرضت عنه ساهيا. لا يعيرنى طرفه ولا يسألنى عما قصدت له، وقد كدت أتميز غيظا، وأقبلت أؤنب نفسى فى قصده. وأسخف رأيى فى التوجه نحو مثله. وأقبل على تلك الزعنفة التى بين يديه، وكل يومئ إليه ويوحى بطرفه، ويشير إلى مكانى بيده، ويوقظه من سنته وجهله، ويأبى هو إلا ازورارا، وعتوا واستكبارا. ثم رأى أن يثنى رأسه إلى، ويقبل بعض الإقبال على، فوالله ما زادنى على أن قال: أيش خبرك؟ فقلت: أنا بخير لولا ما جنيت على نفسى من قصدك، ووسمت به قدرى من ميسم الذل بزيارتك. وكلفت قدمى بالمصير إلى مثلك، ممن لم تهذبه تجربة، ولا أدبته بصيرة.

ثم تحدرت عليه تحدر السيل إلى القرار، وقلت له: أبن لى عافاك الله، مم تيهك وخيلاؤك وعجبك؟ وما الذى يوجب ما أنت عليه من التجبر والتنمر؟ هل ها هنا نسب انتسبت إلى المجد به؟ أو سلطان تسلطت بعزه؟ أو علم تقع الإشارة إليك به؟ إنى لأسمع جعجعة ولا أرى طحنا، وإنك لو قدرت نفسك بقدرها، أو وزنتها بميزانها، ولم يذهب بك مذهباً، لما عدوت أن تكون شاعرا مكتسبا.

فامتقع لونه، وغص بريقه، وجحظت عيناه. وجعل يلين فى الإعتذار. ويرغب فى الصفح والإغتفار. ويكرر الأيمان أنه لم يعرفنى، ولا اعتمد التقصير بى. فقلت: يا هذا، إن جاءك رجل شريف فى نسبه تجاهلت نسبه، أو عظيم فى أدبه صغرت أدبه، أو متقدم عند سلطان خفضت منزلته، فهل المجد تراث لك دون غيرك؟ كلا والله، لكنك مددت الكبر سترا على نقصك، وحائلا دون مباحثتك. فعاد إلى الإعتذار. وأخذت الجماعة فى تليين جانبى والرغبة إلى فى قبول عذره. وهو يؤكد الأقسام أنه لم يعرفنى، فأقول: ألم يستأذن عليك باسمى ونسبى؟ أما فى هذه الجماعة من يعرفك بى لو كنت جهلتنى؟ وهب ذلك كذلك. ألم ترنى ممتطيا بغلة رائعة يعلوها مركب ثقيل وبين يدى عدة من الغلمان؟ أما شاهدت لباسى؟ أما شممت عطرى؟ أما راعك شىء من أمرى أتميز به عن غيرى؟ وهو فى أثناء ما أكلمه يقول: خفض عليك، ارفق، استأن.

فلانت عريكتى، واستحييت من تجاوز الغاية، وأقبل على معظما، وتوسع فى تقريظى مفخما، وأقسم أنه يسعى منذ ورد العراق لملاقاتي، ويعد نفسه بالإجتماع معى. ثم قلت: أشياء تختلج فى صدرى من شعرك أحب أن اراجعك فيها. قال: وما هى؟ قلت: خبرنى عن قولك:

ولا من فى جنازتها تجار يكون وداعها نفض النعال

أهكـذا تؤبن أخوات الملوك؟ والله لو كان هـذا فى أدنى عبيدها لكان قبيحا. وأخبرنى عن قولك:

وضاقت الأرض حتى ظل هاربهم إذا رأى غـير شىء ظنـه رجلا

أفتعلم مرئيا يتناوله النظر ولا يقع عليه اسم شىء؟ وعن قولك:

وإذا أشار محدثا فكأنه قردُ يقهقه أو عجوز تلطم

أما كان لك فى أفانين الهجاء مندوحةُ عن هذا الكلام الرذل الذى يمجه كل سمع؟ فأقبل على ثم قال: أين أنت من قولى:

لو تعقل الشجر التى قابلتها مدت محيية إليك الأغصنا

وأين أنت من قولى:

ألناس مالم يروك أشبـاه والدهر لفظ وأنت معناه
والجود مالم يروك وأنت ناظرها والبأس باعُ وفيك يمناه

أما يلهيك إحسانى فى هذه عن إساءتى فى تلك؟ قلت:

ما أعرف لك إحسانا فيما ذكرته، إنما أنت سارقُ متبع، وآخذُ مقصر، وفيما تقدم من هذه المعانى التى ابتكرها أصحابها مندوحة عن التشاغل بقولك. فأما قولك: لو تعقل الشجر التى قابلتها، فقد نظرت فيه إلى قول أبى تمام:

لو سعت بقعة لإعظام نعمى لسعى نحوها المكان الجديب

فقال: الله المستعان، ومن أبو تمام؟! قلت: الذى سرقت شعره فأنشدته، قال: هذه خلائق السفهاء لا خلائق العلماء، أقسمت غير متحرج فى قسمى أننى لم أقرأ شعرا قط لأبى تمامكم هذا. فقلت: هذه سوءة لو سترتها كان أولى، قال: السوءة قراءة شعر مثله. أليس هو الذى يقول:

لعمرى لقد حررت يوم لقيته لو أن القضاء وحده لم يبرد

والذى يقول:

أقول لقرحانٍ من البين لم يصب رسيس الهوى بين الحشا والترائب

ما قرحان البين أخرس الله لسانه؟! قلت: يا هذا، من أدل الدليل على أنك قرأت شعر هذا الرجل تتبعك مساويه. فعقل عن الإجابة لسانه، وما زاد على أن قال: لا قدس الله أبا تمام وذويه، ثم قلت له: ما الفرق فى كلام العرب بين التقديس والقداس (بتشديد الدال)

والقداس (بفتح القاف والدال) والقادس؟ فقال: وأى شيء غرضك فى هذا؟ قلت: المذاكرة. قال: بل المهاترة. ثم قال: التقديس: التطهير فى كلام العرب. ولذلك سمى القدس قدسا لأنه يشتمل على الذى به الطهور. وكل هذه الأحرف تؤول إليه. قلت له: ما أحسبك أنعمت النظر فى شيء من علوم العرب. ولو تقدمت منك مطالعة لها لما استجزت أن تجمع بين معانى هذه الكلمات مع تبابينها. وذلك لأن القداس (الأولى) حجر يلقى فى البئر ليعلم به غزارة مائها من قلته. والقداس: الجمان. والقادس: السفينة.

قال: يا هذا، مسلمة إليك اللغة. قلت: وكيف تسلمها وأنت أبو عذرتها. وأولى الناس يبالتحقق بها والتوسع فى اشتقاقها والكلام على أفانينها. وما أحد أولى بأن يسأل عن اللغة منك. فشرعت الجماعة الحاضرة فى إعفائه والتواطؤ له. وكنت قد بلغت شفاء نفسي. وعلمت أن الزيادة على الحد الذى انتهيت إليه ضرب من البغى لا أراه فى مذهبي. ونهضت. فنهض لى مشيعا إلى الباب حتى ركبت. وأقسمت عليه أن يعود إلى مكانه. وانتهى الخبر إلى الوزير المهلبي. فكان من سروره وابتهاجه بما جرى ما بعثه على مباكرة معز الدولة قائلا له: أعلمت ما كان من الحاتمى والمتنبي؟ قال: نعم. قد شفا منه صدورنا.

من كتاب (الرسالة الموضحة) للحاتمى.

قال أبو عبد الله معاذ بن إسماعيل اللاذقي: قدم أبو الطيب المتنبى اللاذقية فى سنة نيف وعشرين وثلاثمائة وهو كما عذر وله وفرة إلى شحمتى أذنيه. فأكرمته وعظمته لما رأيته من فصاحته وحسن سمته. فلما تمكن الأنس بينى وبينه. وخلوت معه فى المنزل اغتناما لمشاهدته. واقتباسا من أدبه. قلت: والله إنك لشاب خطير تصلح لمنادمة ملك كبير.

فقال: ويحك أتدرى ما تقول؟ أنا نبى مرسل[1]! فظننت أنه يهزل. ثم تذكرت أنى لم أسمع منه كلمة هزل قط منذ عرفته. فقلت له: ما تقول؟ فقال: أنا نبى مرسل. فقلت له: مرسل إلى من؟ فقال: إلى هذه الأمة الضالة المضلة. قلت: تفعل ماذا؟ قال: املأ الدنيا عدلا كما ملئت جورا. قلت: بماذا؟ قال بإدرار الأرزاق والثواب العاجل لمن أطاع وأتى. وضرب الرقاب لمن عصا وأبى. فقلت له: إن هذا أمر عظيم أخاف منه عليك وعذلته على ذلك فقال بديهة:

---

(١) من المعلوم تاريخيا أنه قد لقب بالمتنبى لادعائه النبوة.

أبـا عبـد الإلـه معـاذُ إنـي ... خفيّ عنك فـي الهيجـا مُقامـي
ذكـرتَ جسيـم مـا طلبـي وأنّـا ... نخاطـر فيـه بالمُهـج الجسـام
أمثلـي تـأخذُ النكبـاتُ منـه ... ويجـزع مـن مُلاقـاة الحمـام
ولـو بـرز الزمـانُ إلـيّ شخصا ... لَخضَّب شعـر مَفْرقـة حُسامـي
ومـا بلـغـت مَشيَّتـها الليـالـي ... ولا سـارتْ وفـي يدهـا زمامـي
إذا امتـلأت عيـونُ الخيـل منـي ... فـويلُ فـي التيقـظ والمنَـام

فقلت: ذكرت إنك مرسل إلى هذه الأمة أفيوحى إليك؟ قال: نعم. قلت: فاتل على شيئا مما أوحى إليك. فأتانى بكلام ما مر بسمعى أحسن منه، فقلت: وكم أوحى إليك من هذا؟ فقال: مائة عبرة وأربع عشرة عبرة قلت: وكم العبرة؟ فأتى بمقدار أكبر الآى من كتاب الله تعالى. قلت: فى كم مدة أوحى إليك؟ قال: جملة واحدة. قلت أسمع فى هذه العبرات أن لك طاعة فى السماء، فما هى؟ قال: أحبس المدرار لقطع أرزاق العصاة والفجار. قلت: أتحبس فى السماء مطرها؟ قال: إى والذى فطرها! أما هى معجزة؟ قلت: بلى والله! قال فإن حبست المطر عن مكان تنظر إليه ولا تشك فيه، هل تؤمن بى وتصدقنى على ما أوتيت من ربى؟ قلت: إى والله قال سأفعل، ولا تسألنى عن شىء بعدها حتى آتيك بهذه المعجزة، ولا تظهر شيئا من هذا الأمر حتى يظهر، وانتظر ما وعدته من غير أن تسأله. ثم قال لى بعد أيام أتحب أن تنظر المعجزة التى جرى ذكرها قلت: إى والله، فقال لى: إذا أرسلت إليك هذا العبد فاركب معه، ولا تتأخر، ولا تخرج معك أحدا، قلت: نعم. فلما كان بعد أيام تغيمت السماء فى يوم من أيام الشتاء، وإذا عبده قد أقبل، فقال: يقول لك مولاى اركب للموعد. فبادرت إلى الركوب معه، وقلت أين ركب مولاك؟ قال إلى الصحراء، واشتد وقع المطر، فقال: بادر بنا حتى نستتر من هذا المطر مع مولاى، فإنه ينتظرنا بأعلى تل لا يصيبه فيه المطر. قلت وكيف عمل؟ قال أقبل إلى السماء أول ما بدا السحاب الأسود، وهو يتكلم بما لا أفهم ثم أخذ السوط، فأدار به فى موضع ستنظر إليه، وإذا هو على تل بعيد عن البلد نصف فرسخ، فأتيته فإذا هو على التل، ولم يصبه من ذلك المطر شىء، وقد خضت فى الماء إلى ركبة الفرس، والمطر فى أشد ما يكون، ونظرت إلى نحو مائتى ذراع فى مثلها من ذلك التل ما فيه قطرة مطر، فسلمت عليه، فرد على السلام. فقلت: أبسط يديك أشهد أنك رسول الله . . . فبسط يده فبايعته بيعة الإقرار بنبوته ثم قال:

أيَّ محـــل ارتقـــى؟ أيّ عظيـــم أتـقـــى؟
وكلُّ مـا قـد خلـق الله ومـا لـــم يـخـلـق
مُحتقـرٌ فـــى هـمتى كشـعـرة فـــى مَفْرق!

وأخـذت بيعتـه لأهلى، ثم صح بعد ذلك أن البيعة عمت كل مدينة فى الشـام، وذلك بأصغر حيلة تعلمها من بعض العرب وهى صدحة المطر يصرفه بها عن أى مكان أحب بعد أن يحوى بعصاً، وينفث فى الصدحة التى لهم.

قـال أبو عبد الله: وقد رأيت كثيرا منهم بالسـكون وحضرموت والسكاسـك من اليمن يفعلـون هـذا، ولا يتعاظمونه، حتـى إن أحدهم يصدح عن غنمه وإبلـه. وعن القرية فلا يصيبهـا شـىء من المطر، وهو ضرب من السـحر. وسـألت المتنبى بعـد ذلك هل دخلت السكون؟ قال: نعم أما سمعت قولى من قصيدتى التى أولها:

مُلثَّ القَطر أعْطشْـها ربُوعا وإلاّ فأسْـقهـا السـمَّ النقيعا
أمُنْسىَّ السَّكونَ وحَضْرموتا ووالدتـى وكِنـدةَ والسَّبيعا

فقلت: من ثم استفاد ما جوزه على طغام أهل الشام.

ومـن كلامه الذى كان يزعم أنـه قرآن أنزل عليه: (والنجم السـيار، والفلك الدوار، والليل والنهار، إن الكافر لفى أخطار امض على سننك، واقف أثر من كان قبلك من المرسلين؛ فإن الله قامع بك زيغ من ألحد فى الدين، وضل عن السبيل).

ومما كان يمخرق به على أهل البادية أنه كان مشـاء قويا على السـير، يسـير سيرا لا غاية بعـده، وكان عارفـا بالفلوات، ومواقع المياه، ومحال العرب بها. وكان يسـير من حلة إلى حلة بالبادية، وبينهما مسيرة أربعة أيام، فيأتى ماء، فيغسل وجهه ويديه ورجليه، ثم يأتى أهل هذه الحلة فيخبرهم عما حدث فى تلك الحلة التى فارقها ويوهم أن الأرض تطوى له.

وسـئل فى تلك الأيام عن النبى صلى الله عليه وسـلم فقال: أخبر بنبوتى حيث قال: أنا لا نبى بعدى وأنا اسمى فى السماء "لا".

وعلـى ذكر قرآن المتنبى نذكر ما قيل من أن أبـا العلاء المعرى عارض القرآن بكتاب وعنونه بالفصول والغايات فى مجاراة السور والآيات(فقيل له: ما هذا إلا جيد إلا أنه ليس عليه طلاوة القرآن. فقال: حتى تصقله الألسن فى المحاريب أربعمائة سنة. وعند ذلك انظروا كيف يكون.

من كتاب (الصبح المنبى عن حيثية المتنبى) للبديعي.

من مشاهير أطباء الخلفاء

كان جرجيـوس بن جبرائيل له خـبرة بصناعة الطب، ومعرفة بالمداواة وأنواع العلاج، وخدم بصناعة الطب المنصور، وكان حظيا عنده رفيع المنزلة، ونال من جهته أموالا جزيلة، وقـد نقل للمنصـور كتبا كثيرة من كتب اليونانيين إلى العربـى، قال فثيون الترجمان: إن أول من استدعى أبو جعفر المنصور لجورجس، هو أن المنصور فى سنة مائة وثمان وأربعين للهجرة مرض وفسدت معدته، وانقطعت شهوته، وكلما عالجه الأطباء ازداد مرضه، فتقدم إلى الربيع بأن يجمع الأطباء لمشـاورتهم. فجمعهم فقال لهم المنصور من تعرفون من الأطباء فى سـائر المدن طبيبـا ماهرا؟ فقالوا ليس فى وقتنا هذا أحد يشـبه جورجس رئيس أطباء جنـدى سـابور، فإنه ماهر فى الطب، وله مصنفات جليلـة، فانفذ المنصور فى الوقت من يحضره.

ولما وصل جورجس إلى الحضرة أمر المنصور بإيصاله إليه، ولما وصل دعا إليه بالفارسية والعربية، فتعجب الخليفة من حسـن منظره ومنطقه، فأجلسـه قدامه وسـأله عن أشـياء فأجابه عنها بسـكون، فقال له: قد ظفرت منك بما كنت أحبه وأشـتاقه، وحدثه بعلته وكيف كان ابتداؤها، فقال له جورجس: أنا أدبرك كما تحب، فأمر الخليفة له فى الوقت بخلعة جلية.

قال فثيون: ولما كان فى سـنة مائة واثنتين وخمسـين ، مرض جورجس مرضا صعبا، وكان الخليفة يرسل إليه فى كل يوم الخدم حتى يعرف خبره، ولما اشتد مرض جورجس، أمربه الخليفة فحمل على سـرير إلى دار العامة، وخرج إليه الخليفة ماشـيا وراءه وسـأله عن خبره، فبكى جورجس بكاء شـديدا وقال له: إن رأى أمير المؤمنين، أطال الله بقاءه، إن يـأذن لى فى المصير إلى بلدى لأنظـر إلى أهلى وولدى، وإن مت قبرت مع آبائى، فقال الخليفة: يا جورجس اتق الله وأسلم، وأنا أضمن لك الجنة.

قـال جورجـس أنا على دين آبائى أموت، وحيث يكون آبائى أحب أن أكون، إما فى الجنة أو فى جهنم، فضحك الخليفة من قوله وقال له: وجدت راحة عظيمة فى جسـمى منـذ رأيتـك وإلى هـذه الغاية، وقد تخلصت مـن الأمراض التى كانـت تلحقنى، قال له جورجس: إنى أخلف بين يديك عيسى وهو تربيتى، فأمر الخليفة أن يخرج جورجس إلى بلده، وأن يدفع إليه عشرة آلاف دينار، وأنفذ معه خادما وقال إن مات فى طريقه فاحمله

إلى منزله ليدفن هناك كما آثر. فوصل إلى بلده حيا. وكان ابنه بختيشوع بن جورجيس، ومعنى بختيشوع عبد المسيح، لأن فى اللغة السريانية البخت العبد، ويشوع عيسى عليه السلام، وكان بختيشوع يلحق بأبيه فى معرفته بصناعة الطب ومزاولته لأعمالها. وخدم هارون الرشيد وتميز فى أيامه.

قال فثيون الترجمان: لما مرض موسى الهادى أرسل إلى جندى سابور من يحضر له بختيشوع. فمات قبل قدوم بختيشوع. وكان من خبره أنه جمع الأطباء، وهم أبو قريش عيسى، وعبد الله الطيفورى، وداؤد بن سرابيون وقال لهم أنتم تأخذون أموالى وجوائزى، وفى وقت الشدة تتقاعدون بى، فقال له أبو قريش: علينا الاجتهاد والله يهب السلامة، فاغتاظ من هذا فقال له الربيع قد وصف لنا أن بنهر صرصر طبيبا ماهرا يقال له عبد يشوع بن نصر، فأمر بإحضاره وبأن تضرب أعناق الأطباء، فلم يفعل الربيع هذا لعلمه باختلال عقله من شدة المرض، ولأنه كان آمنا منه، ووجه إلى صرصر حتى أحضر الرجل. ولما دخل على موسى قال له رأيت القارورة؟ قال نعم يا أمير المؤمنين، وها أنا أصنع لك دواء تأخذه، وإذا كان على تسع ساعات تبرأ وتتخلص وخرج من عنده. وقال للأطباء. لا تشغلوا قلوبكم فإنكم فى هذا اليوم تنصرفون إلى بيوتكم.

وكان الهادى قد أمر بأن يدفع إليه عشرة آلاف درهم ليبتاع له بها الدواء. فأخذها ووجه بها إلى بيته. وأحضر أدوية وجمع الأطباء بالقرب من موضع الخليفة وقال لهم: دقوا حتى يسمع وتسكن نفسه، فإنكم فى آخر النهار تتخلصون. وكان كل ساعة يدعو به ويسأله عن الدواء، فيقول له: هو ذا تسمع صوت الدق فيسكت. ولما كان بعد تسع ساعات مات وتخلص الأطباء. وهذا فى سنة سبعين ومائة.

قال فثيون: ولما كان فى سنة إحدى وسبعين ومائة. مرض هارون الرشيد من صداع لحقه. فقال ليحيى بن خالد هؤلاء الأطباء ليس يحسنون شيئا فقال له يحيى: يا أمير المؤمنين. أبو قريش طبيب والدك ووالدتك، فقال: ليس هو بصيرا بالطب. إنما كرامتى له لقديم حرمته. فينبغى أن تطلب لى طبيبا ماهرا، فقال له يحيى بن خالد أنه لما مرض أخوك موسى. أرسل والدك إلى جندى سابور حتى حضر رجلا يعرف ببختيشوع. قال له فكيف تركه يمضى؟ فقال: لما رأى عيسى أبا قريش، ووالدتك يحسدانه أذن له فى الانصراف إلى بلده، فقال له: أرسل بالبريد حتى يحملوه إن كان حيا.

ولما كان بعد مدة مديدة وافى بختيشوع الكبير بن جورجس. ووصل إلى هارون الرشيد ودعا له بالعربية وبالفارسية. فضحك الخليفة. وقال ليحيى بن خالد أنت منطقى فتكلم

معــه حتى أسمع كلامــه، فقال له يحيى بل ندعو بالأطباء، فدعــى بهم، وهم أبو قريش عيســى، وعبد الله الطيفورى، وداود بن ســرابيون، وسرجس. فلما رأوا يختيشوع قال أبو قريــش: يــا أمير المؤمنين ليس فى الجماعة من يقدر على الكلام مع هذا. لأنه كون الكلام هو وأبوه وجنسه فلاسفة، فقال الرشيد: لبعض الخدم أحضره ماء دابّة حتى نجربه فمضى الخــادم وأحضره قــارورة الماء، فلما رآه قال: يا أمير المؤمنين ليس هذا بول إنســان، قال له أبو قريش: كذبت هذا ماء حظية الخليفة، فقال له بختيشــوع: لك أقول أيها الشــيخ الكريم لم يبل هذا الإنســان البتة، وإن كان الأمر على ما قلت فلعلها صارت بهيمة، فقال له الخليفة من أين علمت أنه ليس ببول إنســان؟ قال له بختيشــوع لأنه ليس له قوام بول الناس، ولا لونه ولا ريحه، قال له الخليفة بين يدى من قرأت؟ قال له قدام أبى جورجس قرأت، قال له الأطباء أبوه كان اسمه جورجس، ولم يكن مثله فى زمانه، وكان يكرمه أبو جعفر المنصور إكراما شديدا.

ثم التفت الخليفة إلى بختيشوع فقال له: ما ترى أن نطعم صاحب هذا الماء؟ فقال شعيرا جيدا، فضحك الرشيد ضحكا شديدا، وأمر فخلع عليه خلعة حسنة جليلة.ووهب له مالا وافرا، وقال بختيشــوع يكون رئيس الأطباء كلهم، وله يســمعون ويطيعون، ولبختيشوع بن جرجس من الكتب كناش مختصر، كتاب التذكرة ألفه لابنه جبرائيل.

مرض جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك، فتقدم الرشيد إلى بختيشوع أن يتولى خدمته ومعالجتــه، ولــما كان فى بعض الأيام قال له جعفر: أريــد أن تختار لى طبيبا ماهرا أكرمه وأحسن إليه، قال له بختيشوع: ابنى جبرائيل أمهر مني، وليس فى الأطباء من يشاكله، فقال له احضرنيه، ولما أحضره عالجه فى مدة ثلاث أيام وبرأ، فأحبه جعفر مثل نفســه، وكان لا يصبر عنه ساعة، ومعه يأكل ويشرب.

وفى تلك الأيام تمطت حظية الرشــيد ورفعت يدها فبقيت منبســطة لا يمكنها ردها، والأطباء يعالجونها بالتمريخ والأدهان، ولا ينفع ذلك شيئاً، فقال الرشيد لجعفر بن يحيى قــد بقيــت هذه الصبية بعلتها، قال له جعفر لى طبيب ماهر، وهو ابن بختيشــوع، ندعوه ونخاطبه فى معنى هذا المرض، فلعل عنده حيلة فى علاجه، فأمر بإحضاره. ولما حضر قال له الرشيد: ما اسمك؟ قال: جبرائيل، قال له أى شيء تعرف من الطب؟ فقال أبرد الحار، وأسخن البارد، وأرطب اليابس، وأيبس الرطب الخارج عن الطبع، فضحك الخليفة وقال: هذا غاية ما يحتاج إليه فى صناعة الطب، ثم شــرح له حال الصبية، فقال له جبرائيل:

إن لم يسخط عليّ أمير المؤمنين فلها عندى حيلة. فقال له: وما هى؟ قال: تخرج الجارية إلى هاهنا بحضرة الجمع حتى أعمل ما أريده. وتمهل على ولا تعجل بالسخط.

فأمر الرشـيد بإحضار الجارية فخرجت، وحين رآها جبرائيل عدا إليها ونكس رأسه ومسـك ذيلهـا كأنه يريد أن يكشـفها. فأنزعجت الجارية، ومن شـدة الحياء والانزعاج استرسلت أعضاؤها، وبسطت يديها إلى أسفل، ومسكت ذيلها، فقال جبرائيل: قد برئت يا أمير المؤمنين. فقال الرشـيد: للجارية إبسـطى يديك يمنة ويسرة ففعلت ذلك، وعجب الرشـيد وكل من كان بين يديه، وأمر الرشـيد فى الوقت لجبرائيل بخمسمائة ألف درهم. وأحبه مثل نفسه، وجعله رئيسا على جميع الأطباء.

من كتاب (عيون الأنباء فى طبقات الأطباء) لابن أبى أصيبعة

□□□

بلاغة جارية

وصف لعبد الملك بن مروان جارية لرجل من الأنصار ذات أدب وجمال، فساومه ابتياعها فامتنع وامتنعت، وقالت: لا أحتاج إلى الخلافة، ولم أرغب فى الخليفة والذى أنا فى ملكه أحب إلى من الأرض ومن فيها. فبلغ ذلك عبد الملك فأغراه بها، فأضعف الرضا لصاحبها وأخذها قسرا، فما أعجب بشيء إعجابه بها، فلما وصلت إليه وصارت فى يديه أمرها بلزوم مجلسه، والقيان على رأسه، فبينما هى عنده ومعه ابناه الوليد وسليمان، فداخلهما للمذاكرة، فأقبل عليهما فقال: أى بيت قالته العرب أمدح؟

فقال الوليد: قول جرير فيك:

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح

وقال سليمان: بل قول الأخطل:

شمس العداوة حتى يستقاد لهم وأعظم الناس أحلاما إذا قدروا

فقالت الجارية: بل أمدح بيت قالته العرب قول حسان بن ثابت[1]:

يغشون حتى ما تهر كلابهم لا يسألون عن السواد المقبل

فأطرق ثم قال: أى بيت قالته العرب أرق؟ فقال الوليد: قول جرير:

إن العيون التى فى طرفها حورٌ قتلننا ثم لم يحيين قتلانا

فقال سليمان: بل قول عمر بن أبى ربيعة:

حبذا رجعها يديها إليها من يدى درعها تحل الإزارا

فقالت الجارية: بل بيت يقوله حسان:

لو يدب الحولى من ولد الذر عليها لأندبتها الكلومُ

فأطرق ثم قال: أى بيت قالته العرب أشجع؟ فقال الوليد: قول عنترة[2]:

إذ يتقون بى الأسنة لم أخم عنها ولكنى تضايق مقدمى

---

(١) هو حسان بن ثابت الأنصاري، من الشعراء المخضرمين، فكان شاعرا معتبرا عند ملوك الغساسنة فى الشام قبل الإسلام، ثم أسلم وصار شاعر الرسول صلى الله عليه وسلم بعد الهجرة، توفى أثناء خلافة على بن أبى طالب ما بين عامى (٤٠ - ٣٥هـ).

(٢) هو عنترة بن شداد العبسى (٥٢٥ - ٦٠١م)، من أعظم شعراء العرب فى الجاهلية (ما قبل الإسلام)، وأحد شعراء المعلقات السبع، اشتهر بحبه لعبلة ابنة عمه وبشعره فيها، فضلا عن شعره فى الفخر والحماسة.

فقال سليمان: بل قوله:

وإذا المنية فأى المواطن كلها فالموت منى سائق الآجالِ

فقالت الجارية: بل بيت يقوله كعب بن مالك[1]:

نصل السيوف إذا قصرن بخطونا قدما ونلحقها إذا لم تلحقِ

فقال عبد الملك: أحسنت، وما نرى شيئا فى الإحسان إليك أبلغ من ردك إلى أهلك، فأجمل كسوتها، وأحسن حلتها، وردها إلى أهلها.

من كتاب (زهر الآداب وثمر الألباب) للحصرى.

❑❑❑

(١) هو كعب بن مالك الأنصاري. صاحب النبى صلى الله عليه وسلم وشاعر الإسلام، شهد بيعة العقبة. كان أحد الثلاثة الذين خلفوا عن غزوة تبوك دون عذر فأنزل الله فيهم قرآن فى سورة التوبة ليتوب عليهم، توفى عام ٥٠هـ.

obeikandl.com

المصادر

- **الحصرى**، أبو إسحاق ابراهيم بن على (ت ٤٥٣هـ / ١٠٣١م). جمع الجواهر فى الملح والنوادر، تحقيق: على محمد البحراوى، دار الفكر العربى ١٩٥٤.
- **الحصرى**، أبو إسحاق ابراهيم بن على (ت٤٥٣هـ / ١٠٣١م)، زهر الآداب وثمر الألباب، تحقيق: على محمد البحراوى، دار الفكر العربى ١٩٥٤.
- **التنوخى**، أبو على بن المحسن بن على (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)، المستجاد من فعل الأجواد، تحقيق: أحمد فريد المزيرى، دار الكتب العلمية ٢٠٠٥م.
- **التنوخى**، أبو على بن المحسن بن على (ت ٣٨٤هـ / ٩٩٤م)، نشوار المحاضرة وأخبار المذاكرة، تحقيق: عبود الشالجى، دار صادر- بيروت، الطبعة الثانية.
- **ابن عبد ربه الأندلسى**، أبو عمر أحمد بن محمد (ت ٣٨٢هـ / ٩٩٢م)، العقد الفريد، تحقيق: خليل شرف الدين، دار الهلال ٢٠٠١م.
- **ابن طيفور**، أبو الفضل بن أبى طاهر (ت ٣٨٠هـ / ٩٩٠م)، بلاغات النساء، دار الحداثة - بيروت.
- **الكتبى**، محمد بن شاكر بن أحمد بن عبد الرحمن (ت ٧٦٤هـ / ١٣٦٢م)، فوات الوفيات، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت.
- **ابن الجوزى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد (ت ٥٩٢هـ / ١١٩٥م)، الأذكياء، تحقيق: محمد محفوظ، دار ابن حزم - بيروت.
- **ابن الجوزى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد (ت ٥٩٢هـ / ١١٩٥م)، صفة الصفوة، تحقيق: محمود فاخورى ومحمد رواس، دار المعرفة - بيروت، الطبعة الثانية ١٩٧٩م.
- **ابن الجوزى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد (ت ٥٩٢هـ / ١١٩٥م)، أخبار الظراف والمتماجنين، تحقيق: عرفان محمد محمود، دار الكتب العلمية ٢٠٠٦م.
- **ابن الجوزى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد (ت ٥٩٢هـ / ١١٩٥م)، أخبار النساء، تحقيق: عبد المجيد طعمه الحلبى، دار المعرفة للطباعة والنشر ١٩٩٨م.

- **ابن الجوزى**، أبو الفرج عبد الرحمن بن أبى الحسن على بن محمد (ت ٥٩٢هـ / ١١٩٥م)، المنتظم فى تاريخ الملوك والأمم، تحقيق: محمد ومصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية ١٩٩٥م.
- **ابن شداد**، أبو المحاسن بهاء الدين يوسف بن رافع (ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م)، النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، تحقيق: أحمد ايبش، الأوائل للنشر والتوزيع.
- **ابن بطوطة**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد الطنجى (ت ٧٧٩هـ / ١٣٧٧م)، تحفة النظار فى غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، المطبعة الخيرية ١٣٢٢هـ.
- **الطبرى**، أبو جعفر بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب (ت ٣١٠هـ / ٩٢٣م)، تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبرى)، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، دار المعارف ١٩٦٠م.
- **الأصبهانى**، أبو نعيم أحمد بن عبد الله بن أحمد (ت ٤٣٠هـ / ١٠٣٨م)، حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، دار الكتاب العربى – بيروت ١٤٠٥هـ.
- **الجبرتى**، عبد الرحمن بن حسن بن برهان الدين (ت ١٢٤٠هـ / ١٨٢٥م)، عجائب الآثار فى التراجم والأخبار، طبعة بولاق ١٢٩٧هـ.
- **اليافعى**، أبو محمد عبد الله بن أسعد (ت ٧٦٨هـ / ١٣٦٦م)، مرآة الجنان وعبرة اليقظان فى معرفة ما يعتبر من حوادث الزمان، دار الكتب العلمية ١٩٩٧م.
- **الطوسى**، أبو على الحسن نظام الملك (ت ٤٨٥هـ / ١٠٩٢م)، سياستنامه، ترجمة وتحقيق: محمد العزاوى، دار الرائد العربى ١٩٩٠م.
- **النباهى**، أبو الحسن على بن عبد الله بن محمد المالقى (ت ٧٩٢هـ / ١٣١٣م)، تاريخ قضاة الأندلس، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربى، دار الآفاق الجديدة.
- **ابن عربشاه**، أبو العباس أحمد بن محمد بن عبد الله بن ابراهيم (ت ٨٥٤هـ / ١٤٥٠م)، عجائب المقدور فى أخبار تيمور، ترجمة وتحقيق: أحمد فايز الحمصى، مؤسسة رسالة للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٨٦م.
- **المقريزى**، تقى الدين أحمد بن على (ت ٨٤٥هـ / ١٤٤٢م)، إغاثة الأمة بكشف الغمة، تحقيق: جمال الدين الشيال، مكتبة الثقافة – القاهرة ٢٠٠٠م.
- **ابن عبد الحكم**، أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله (ت ٢٥٧هـ / ٨٧٠م)، فتوح مصر

والمغرب، تحقيق: على عمر، دار الفكر العربى ٢٠٠٠م.
- **ابن عذارى**، أبو عبد الله محمد المراكشى (ت ٦٩٥هـ / ١٢٩٥م)، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: محمد ابراهيم الكنانى و محمد بن تاويت و محمد زنيبر و عبد القادر زمامة، دار الثقافة ١٩٨٥م.
- **السيوطى**، عبد الرحمن بن الكمال أبى بكر بن محمد (ت ٩١١هـ / ١٥٠٥م)، حسن المحاضرة فى تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل ابراهيم، القاهرة ١٩٦٧م.
- **ابن خاقان**، أبو نصر الفتح بن محمد (ت ٥٢٩هـ / ١٣٤٠م)، مطمح الأنفس ومسرح التأنس فى ملح أهل الأندلس، تحقيق: أحمد على شوابكة، مؤسسة الرسالة ودار عمار – بيروت ١٩٨٣م.
- **الحموى**، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م)، معجم الأدباء، تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامى – بيروت ١٩٩٣م.
- **المعافى بن زكريا**، أبو الفرج بن طرار النهروانى (ت ٣٩٠هـ / ١٠٠٠م)، الجليس الصالح والأنيس الناصح، تحقيق: محمد مرسى الخولي، دار عالم الكتب – بيروت.
- **ابن دريد**، أبو بكر محمد بن الحسن بن عتاهيه (ت ٣٢١هـ / ٩٣٣م)، الفوائد والأخبار، تحقيق: إبراهيم صالح، مؤسسة الرسالة ١٩٨٦م.
- **النويرى**، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ / ١٣٣٢م)، نهاية الأرب فى فنون الأدب، تحقيق: مفيد قميحة وآخرون، دار الكتب العلمية ٢٠٠٤م.
- **ابن سعيد**، على بن موسى بن محمد المغربى (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م)، المغرب فى حلى المغرب، تحقيق: شوقى ضيف، دار المعارف ١٩٦٩م.
- **المبرد**، أبو العباس محمد بن يزيد (ت ٢٨٦هـ / ٨٢٥م)، الكامل، تحقيق: محمد أحمد الدالى، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة ١٩٩٧م.
- **ابن الآبار**، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر القضاعى (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م)، الحلة السيراء، تحقيق: حسين مؤنس، الشركة العربية للطباعة والنشر ١٩٦٣م.
- **ابن حبان**، أبو حاتم محمد بن حبان بن أحمد (ت ٣٥٤هـ / ٩٦٥م)، روضة العقلاء ونزهة الفضلاء، تحقيق: محمد عبد الحميد، مؤسسة الريان للطباعة والنشر ١٩٩٨م.
- **الحميرى**، محمد بن عبد المنعم الصنهاجى (ت ٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)، الروض المعطار فى

خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس. مؤسسة ناصر للثقافة – بيروت ١٩٨٠م.
– **وكيع**، أبو بكر محمد بن خلف بن حيان (ت ٣٠٦هـ / ٩١٨م)، أخبار القضاة، تحقيق: عبد العزيز مصطفى المراغى، المكتبة التجارية الكبرى – القاهرة ١٩٥٠م.
– **ابن مسكويه**، أبو على أحمد بن محمد بن يعقوب (ت ٤٢١هـ / ١٠٣٠م)، تجارب الأمم وتعاقب الهمم، تحقيق: سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية ٢٠٠٣م.
– **ابن عبد البر**، أبو عمر جمال الدين يوسف بن عبد الله القرطبى (ت ٤٦٣هـ / ١٠٧٠م)، بهجة المجالس وأنس المجالس وسحذ الذاهن والهاجس، تحقيق: محمد مرسى الخولى، دار الكتب العلمية ١٩٨١م.
– **القلقشندى**، أبو العباس شهاب الدين أحمد بن على (ت ٨٢٠هـ / ١٤١٧م)، مآثر الأناقة فى معالم الخلافة، تحقيق: عبد الستار أحمد فراج، عالم الكتب – بيروت ٢٠٠٦م.
– **الحاتمى**، أبو على محمد بن الحسن بن المظفر البغدادى (ت ٣٨٨هـ / ٩٩٨م)، الرسالة الموضحة فى ذكر سرقات المتنبى وساقط شعره، تحقيق: محمد يوسف نجم، دار صادر – بيروت ١٩٦٥م.
– **ابن أبى أصيبعة**، موفق الدين أبو العباس أحمد بن سديد الدين (٦٦٨هـ / ١٢٦٩م)، عيون الأنباء فى طبقات الأطباء، تحقيق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ١٩٩٨م.
– **البديعى**، يوسف الدمشقى (ت ١٠٧١هـ / ١٦٦٢م)، الصبح المنبى عن حيثية المتنبى، تحقيق: مصطفى السقا ومحمد شتا، دار المعارف ١٩٩٨م.

المحقق فى سطور

- أحمد سالم سالم على.
- ولد بالإسكندرية عام ١٩٨٠م.
- يعمل مفتشا للآثار الإسلامية بالمجلس الأعلى للآثار منذ عام ٢٠٠٣م.
- حصال على ماجستير الآداب من جامعة الإسكندرية عام ٢٠٠٩م.
- حاصل على ليسانس الآداب، قسم التاريخ، شعبة الآثار الإسلامية من كلية الآداب جامعة الإسكندرية عام ٢٠٠٢م.
- عضو العديد من الجمعيات المتخصصة، مثل الجمعية الجغرافية والجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- له العديد من الأبحاث والمقالات المنشورة فى دوريات متخصصة وغير متخصصة، فضلا عن الكتب المنشورة فى مجال التاريخ والحضارة.

□□□

obeikandl.com